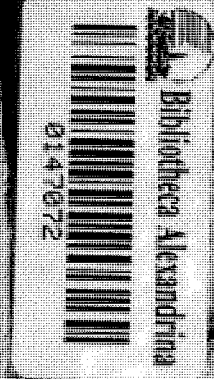


البيركامي

الغريب



رسمت من قبل الفنان
عبد الوهاب - لبنان



أَلْبَيْرَكَامُو

الغزيب

مكتبة الثقافة
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

٢٠١٤ هـ - ٢٠١٤ م

الجزء الأول

الفصل الأول

ماتت أمي اليوم • وربما أمس ، لا أدري ! لقد تلقيت من الملجأ الذي كانت تقيم فيه برقية هذا نصها : « أمكم توفيت • الدفن غدا • أخلص تعازينا » • ولم أستطع أن أفهم من ذلك شيئا •• ربما تكون قد توفيت أمس !

ان ملجأ العجزة في بلدة مارنوجو التي تبعد نحو ثمانين كيلو مترا عن مدينة الجزائر •• سأستقل الاوتوبيس في الساعة الثانية وسأصل الي هناك بعد الظهر ، وهكذا أستطيع أن أسهر الليل بجانب أمي وأدونها مساء الغد • لقد طلبت اجازة يومين من رئيسي ، ولم يستطع أن يجد عذرا لرفض طلبي ، ولكن لم يكن يبدو عليه أنه راض •• حتى انني قلت له : « ليس هذا ذنبي » • ولكنه لم يجب • وفكرت حينئذ في انه لم يكن ينبغي أن أقول له ذلك • وعلى أي حال فلم يكن ثمة ما يستوجب اعتذاري ، وكان الاخرى به أن يقدم لي العزاء • ولكنه سيفعل ذلك من غير شك بعد غد حينما يراني في ملابس الحداد • أما الآن فانه يبدو لي كأن أمي لم تمت • لكن بعد الدفن ستكون المسألة قد وضحت وضوحا تاما وستتخذ مظهرها رسميا •

ركبت الاوتوبيس في الساعة الثانية ، وكان الجو حارا شديد القیظه .
وكنت قد تناولت الطعام عند « سيلست » كما هي العادة . وكان جميع
من في المطعم متألمين لمصابي ، وقد قال لي سيلست : « ان الانسان ليست
له سوى أم واحدة » . وحينما غادرت المطعم راقفوني حتى الباب . وكنت
مذهولا بعض الشيء لانه كان ينبغي أن أذهب الى عمانويل لاستعير منه
رباط عنق أسود ، وشارة للحداد أضعها فوق ذراعي . ولكنه كان قد
فقد عمه منذ بضعة شهور .

وقد جريت لكي لا يفوتني الاوتوبيس . وهذه العجلة ، والجهد
الذي بذلته في الجري : الى جانب اهتزاز السيارة ، ورائحة البنزين ،
وانعكاس ضوء الشمس على الطريق وفي السماء ، كل هذا جعلني أغفوه .
لقد نمت معظم وقت الرحلة ، ولما استيقظت وجدت جسمي كالكرة وانني
أجلس بجانب جندي فابتسم لي وسألني : هل رحلتك بعيدة ؟ وقلت له :
« نعم » حتى لا أطيل الحديث ا

كان الملجأ يبعد عن القرية نحو كيلو مترين ، وقد قطعت هذه المسافة
سيرا على قدمي . وكنت أريد أن أرى أمي على القور ، ولكن البواب
قال لي أنه يجب أن أقابل المدير أولا . وكان المدير مشغولا ولذلك
انتظرت قليلا . وفي خلال هذا الوقت كان البواب يتحدث باستمرار ،
وأخيرا رأيت المدير ، وقد استقبلني في مكتبه . انه يكاد أن يكون كهلا ،
وكان يحمل وسام عصبة الشرف « اللجيون دونور » . وقد نظر الي
بعينه الصافيتين ، ثم صافحني ، واحتفظ بيدي في يده فترة طويلة حتى
انني لم أعرف كيف أسحبها . وفتح سجلا وقال لي : « لقد دخلت مدام

ميرسول الملجأ منذ ثلاثة أعوام ، وكنت أنت عائلها الوحيد » . وظننت أنه يؤنبني ، وحاولت أن أوضح له الامر ، ولكنه قاطعني قائلاً : « أنت غير مرغم على أن تلتمس الاعذار لتبرير موقفك يا ولدي العزيز . لقد قرأت سجل أمك ، وأدركت أنك لم تكن تستطيع اعالتها وتوفير ما كانت في حاجة اليه . لقد كانت في حاجة الى مرضة ولكن مرتبك زهيد ، ومهما يكن من أمر فانها كانت أسعد حالا هنا » .

وقلت : « نعم يا سيدي المدير » . وحينئذ أضاف قائلاً : « أنت تعلم أنه كان لها أصدقاء من سنها هنا ، وكانت تستطيع أن تشاطرهم اهتمامات زمن مضى . انك شاب ، ولا بد أنها كانت ستشعر بالملل والضيق اذا كانت قد عاشت معك » .

وهذا حق . فان أومي حينما كانت تعيش معي في المنزل ، كانت تقطع وقتها في متابعتي بعينها في صمت . وفي الايام الاولى لاقامتها في الملجأ كانت تبكي كثيرا . ولكن هذا كان بسبب عدم التعود . وبعد بضعة شهور كان لا بد أن تبكي اذا خرجت من الملجأ دائما بسبب التعود . وربما كان هذا هو السبب في أني لم أذهب لزيارتها في خلال العام الاخير ولو مرة . وهناك سبب آخر ، هو أن هذا كان سيضيع مني يوم الاحد ، بالاضافة الى الجهد الذي أبذله في السفر بالاوتوبيس ، وشراء تذكرتين ، وساعتين تضيعان في الطريق .

وتكلم معي المدير مرة أخرى ، ولكنني لم أصغ اليه تقريبا . ثم قال لي : « أعتقد انك تريد رؤية أمك » ونهضت من غير أن أقول شيئا . وسبقني الى الباب . وعلى الدرج قال لي موضحا : « لقد نقلناها الى

المبنى الصغير المخصص للموتى (المورج) الملحق بالملجأ ، وذلك لعدم
اثارة مشاعر النزلاء الآخرين • فعندما يتوفى نزيل يصبح زملاؤه عصبيين
لمدة يومين أو ثلاثة ، وهذا يجعل الخدمة هنا صعبة » •

واجتزنا فناء فيه كثير من العجزة يثرثرون ، وقد انقسموا الى
جماعات • وصمتوا حينما مررنا بهم ، ثم استأنفوا الحديث بعد أن
تجاوزناهم ، وكان لحديثهم رنة صوت البيغاوات وهي تثرثر • وعند باب
مبنى صغير تركني المدير بعد أن قال لي : « اني أتركك الآن يا مسيو
ميرسول وأنا رهن تصرفك في مكنتي • وقد تفرر ، من حيث المبدأ ، أن
يتم الدفن في الساعة العاشرة من صباح الغد • وقد فكرنا انك ربما
أحببت أن تسهر الليلة بجوار الفقيدة • كلمة أخيرة : يبدو أن أمك قد
أسرت كثيرا لزملائها وزميلاتها برغبتها في أن تدفن طبقا للطقوس الدينية •
وقد تكفلت بأن أفعل ما يجب في هذا الشأن ولكنني أردت فقط أن
أخطرك بذلك » • وشكرته • ان أمي ملحدة ، ولكنها لم تفكر مطلقا
في الدين مدة حياتها •

ودخلت الى مبنى حفظ الجثث • ووجدت نفسي في قاعة يغمرها النور،
مطلية بالجير ، ولها جدران من زجاج • ولم يكن بها من أثاث سوى بعض
المقاعد ، كما كان بها بعض المساند الخشبية على شكل (X) ، وكان منهما
اثنان في وسط القاعة عليهما تابوت وغطاؤه ، وكانت المسامير القلاووظ
التي دقت في أخشاب التابوت لامعة • وبجانب التابوت رأيت ممرضة
عربية في ثوب أبيض ، وعلى رأسها ايشارب زاهي اللون •

وفي هذه اللحظة دخل البواب ووجدته وراء ظهري ، لا بد أنه قد

جری لكي يلحقني • وقال لي وهو يتلثم : « لقد غطيناها ، ولكن يجب أن أفك المسامير لكي تراها » • وتقدم نحو التابوت ولكني منعتة • فسألني : « ألا تريد أن تراها ؟ » • فقلت : « لا » ، وتوقف ، وشعرت بالضيق لاني أحسست بأنه لم يكن ينبغي أن أقول ذلك • وبعد لحظة نظر اليّ وسألني : « لماذا ؟ » ، قالها من غير عتاب كأنه يريد أن يستوضحني • فقلت : « لا أدري » • وحينئذ قال وهو يبرم شاربه الابيض من غير أن ينظر اليّ : « فهمت » • كانت له عينان جميلتان زرقاوان صافيتان ، وبشرته حمراء قليلا • وأعطاني مقعدا وجلس هو على مقعد خلفي • ونهضت الممرضة واتجهت الى الباب • وحينئذ قال لي البواب : « انها تشكو من قرحة » • ولما لم أفهم ما يريد أن يقول نظرت الى الممرضة فرأيت تحت عينها رباطا أبيض يدور حول رأسها ويكاد يغطي أنفها •

ولما خرجت قال لي البواب : « سأتركك وحدك » • ولا أذكر الحركة التي فعلتها ، ولكنه ظل واقفا خلفي • وكان وجوده وراء ظهري يضايقني كانت القاعة يغمرها ضوء بعد الظهر الجميل • وكان اثنان من «الدبابير» يطنان في الهواء قرب الجدار الزجاجي • وشعرت بالنوم يستحوذ عليّ ، فقلت للبواب من غير أن ألتفت اليه • « هل أنت هنا منذ مدة طويلة ؟ » فأجاب علي الفور : « منذ خمس سنوات » • لكأنه كان ينتظر هذا السؤال منذ زمن طويل !

ثم أخذ يرثر كثيرا • ولا بد انه كان سيدهش لو أنني قلت له أنه سيختم حياته كبواب ملجأ مارنيجو • كان يبلغ من العمر أربعة وستين عاما ، وقال لي انه من باريس • وفي هذه اللحظة قاطعته قائلا : « آه !

اذن أنت لست من هنا ؟ » وتذكرت حينئذ أنه قبل أن يقودني الى مكتب المدير تحدث عن أمي . فقد قال لي أنه يجب دفنها بأسرع ما يمكن ، لان الجو حار في هذه البلاد . وقد أخبرني حينئذ أنه كان يعيش من قبل في باريس وأنه يتذكرها كثيرا ولا يستطيع أن ينساها . وقال ان المرء في باريس يستطيع أحيانا أن يبقى مع الميت ثلاثة أيام أو أربعة ، أما هنا فهذا غير ممكن . وحينئذ قاطعته زوجته وكانت قد حضرت منذ قليل : «أسكت، هذه أشياء لا يليق أن ترويها للسيد » . واحمر وجه الرجل العجوز واعتذر ، وتدخلت أنا قائلا : « كلا . . كلا . . لا بأس » فقد وجدت ان ما كان يقوله صحيحا وممتعا .

ولم يلبث أن استأنف حديثه قائلا أنه اضطر أن يأتي الى الملجأ بسبب فقره . ولما كانت صحته جيدة فقد اقترح على ادارة الملجأ أن يعمل بوابا . فقلت له انه يعتبر على أي حال واحدا من النزلاء . فقال معترضا : « لا » . واسترعت انتباهي تلك الطريقة التي يتحدث بها عن نزلاء الملجأ فهو يقول : « هم » أو « هؤلاء » وأحيانا يقول « الكهول » مع أن بعضهم ليسوا اكبر منه سنا . ويبدو أن ما كان يقوله شيء طبيعي ، فهو كبواب يشعر بأنه يفضلهم وبأن له حقوقا اكثر منهم .

ودخلت الممرضة في هذه اللحظة . وحل المساء بغتة ، ولم يلبث أن بدأ ظلام الليل يزحف بسرعة عبر الجدران الزجاجية ، وأدار البواب المحول الكهربائي فغمس المكان فجأة ضوء باهر يكاد يخطف البصر . ودعاني الى حجرة الطعام لاتناول العشاء، ولكني لم اكن أشعر بأني جائع . وحينئذ عرض أن يحضر لي قدحا من قهوة ممزوجة باللبن . ولما كنت

أحب كثيرا القهوة المزوجة باللبن فقد وافقت ، وبعد قليل عاد ومعه صينية • وشربت القهوة ، وشعرت برغبة في تدخين سيجارة ، ولكنني ترددت لاني لم أكن أدري اذا كنت أستطيع أن أفعل ذلك أمام أمي • وفكرت قليلا ، ووجدت انه ليس في الامر ما يهم • وقدمت سيجارة للبواب وأخذنا ندخن معا •

قال لي في أثناء الحديث : « ان أصدقاء السيدة والدتك سيحضرون للسهر بجانبها أيضا ، هذا هو العرف المتبع ، وينبغي أن أذهب لاحضار مقاعد واعداد القهوة » • • وسألته : هل من الممكن اطفاء أحد المصابيح ؟ فقد كان الضوء الساطع المنعكس على الجدران البيضاء يتعبنى • فقال لي ان هذا غير مستطاع لان التركيبات الكهربائية صنعت هكذا ، فاما أن تضاء المصابيح كلها أو أن تطفأ كلها • ولم ألتفت اليه بعد ذلك كثيرا • فخرج ثم عاد وبدأ يرتب المقاعد ، ووضع فوق أحدها بعض أقداح للقهوة حول « كنيكة » ، ثم جلس في مواجهتي على الجانب الآخر من أمي • وكانت الممرضة في آخر القاعة ، وقد أدارت ظهرها لنا • ولم أستطع أن أعرف ماذا كانت تفعل ، ولكنني استنتجت من حركة ذراعيها أنها تنزل خيوط التريكو • كان الجو لطيفا ، وشعرت بالدفء بعد احتساء القهوة • وعبر الباب المفتوح دخلت رائحة الليل والازهار • وأعتقد أنني غفوت قليلا •

ولم ألبث أن استيقظت على همس خافت • وعلى الرغم من أنني أغمضت عيني فان القاعة كانت تبدو لي ساطعة الضوء • ولم يكن أمامي أي ظل وكانت كل أركان القاعة وزواياها نظيفة وعليها رسوم جميلة •

وفي هذه اللحظة دخل أصدقاء أُمِّي ، وكان عددهم نحو عشرة ، وتسللوا في سكون وصمت في هذا الضوء الذي يبهر الابصار . وجلسوا من غير أن يصدر من أي مقعد أي صرير . وأخذت أتأملهم باهتمام زائد وأدقق النظر في كل تفاصيل ملامحهم وثيابهم . ومع هذا فاني لم أسمعهم يتحدثون، وخيل الي انني أكاد أن اكون في حلم، ولست في عالم الحقيقة . وكان معظم النساء يرتدين مآزر (مرايل) ، ولم يكن يستطيع الشريط الذي كان يضغط عليها أن يمنع بطونهن من البروز . ولم أكن قد استطعت أن ألاحظ من قبل أنه يمكن أن تكون للنساء المسنات بطون بارزة . أما الرجال فكانوا في غاية الهزال وكان كل منهم يمسك بعصا . والشيء الذي أدهشني ، وأنا أنطلع الي وجوههم، أنني لم أستطع أن أتبين عيونهم، وكل ما رأيته هو وميض غير لامع في وسط حفرة من التجاعيد . ولما جلسوا نظر معظمهم اليّ وهزوا رؤوسهم وقد بدا عليهم الكدر ، وبدت شفاههم وقد ابتلعها أفواههم الخالية من الاسنان ، ولم أدر اذا كانوا قد حيوني أو أن عضلات وجوههم هي التي تقلصت . ولكنني أرجح أنهم حيوني . وفي هذه اللحظة تبينت أنهم جميعا جلسوا في مواجهتي حول البواب وهم يهزون رؤوسهم . وخطر لي في هذه اللحظة خاطر مضحك وهو أنهم جلسوا هكذا . . لكي يحاكموني !

وبعد قليل بدأت احدى السيدات تبكي ، وكانت جالسة في الصف الثاني مخفية وراء احدى زميلاتها ، وكنت أراها بصعوبة . وكان بكاءؤها يتخذ شكل صرخات ضعيفة ، ولكنها منتظمة ، وكان يبدو أنها لن تتوقف مطلقا . أما الاخريات فكان يبدو عليهن أنهم لا يلقين اليها بالا . وكانوا جميعا ، رجالا ونساء ضعفاء مكتئبين وصامتين . وكانوا يتطلعون الي

التابوت أو الى عصيهم ولم يكونوا يتطلعون الى شيء آخر . واستمرت المرأة في بكائها ، وقد أدهشني ذلك للغاية ، لاني لم أكن أعرفها . وأردت ألا أصغي اليها ، ولم أجرؤ أن أطلب منها أن تكف عن البكاء . ومال البواب نحوها ، وتحدث معها ولكنها هزت رأسها وقالت شيئا ما وهي تتمم ، واستمرت في بكائها بالانتظار نفسه . وأقبل البواب حينئذ الى ناحيتي ، وجلس قريبا مني . وبعد فترة طويلة قال لي من غير أن يلتفت نحوي وكأنه يطلعني على نأ يهمني : « لقد كانت وثيقة الصلة بالسيدة والدتك . وهي تقول انها كانت صديقتها الوحيدة وأنه لم يعد لها الآن في الدنيا أحد » .

وظللنا فترة طويلة على هذا الحال . وبدأ نحيب السيدة الباكية يقل شيئا فشيئا ، ولكنها كانت تفر كثيرا . وأخيرا سكنت . ولم يعد النوم يراودني ، ولكنني كنت متعبا وكنت أشعر بألم في ظهري . وران الصمت على جميع الحاضرين الذين كنت أرثي لحالهم ، وان كنت بين حين وحين أسمع صوتا غريبا لم أستطع أن أعرف كنهه . ولكنني ظننت أخيرا أن بعضهم كانوا يلقون بطون أفواههم بألستهم فيحدثون هذه الاصوات الغريبة ولكنهم لم يكونوا يلحظون ذلك بسبب انهاهم في التفكير . وخيل اليّ أيضا أن هذه الميتة الراقدة في وسطهم لا تعني شيئا في نظرهم . ولكنني أعتقد الآن أن هذا الظن كان خاطئا .

وشربنا جميعا القهوة التي قدمها لنا البواب . وبعد ذلك لم أعد أدري شيئا . فقد مر الليل . وأتذكر أنني فتحت عيني فرأيت العجزة نائمين وقد تكدسوا فوق بعضهم البعض الا واحدا منهم كان يستند

بذقته على ظهر كفيه المتشبتين بالعصا وينظر اليّ بامعان كأنما لم يكن ينتظر غير أن أستيقظ . ونمت من جديد ، ثم استيقظت بعد أن شعرت بازدياد الالم في ظهري . وبدا ضوء الصباح يتسلل عبر الجدران الزجاجية . واستيقظ أحد الكهول وأخذ يسعل سعالا شديدا . ويصق في مندبل كبير فيه خطوط، وكان كأنه ينتزع كل بصقة من جوفه انتزاعا . وقد أيقظ الباقيين ، وقال البواب انه ينبغي عليهم ان يرحسوا المكان فنهضوا . وكانت هذه السهرة غير المريحة قد أحالت وجوههم الى لون كالرماد ، وفي اثناء خروجهم دهشت حينما وجدتهم يصفحونني جميعا كأنما كانت هذه الليلة ، التي تتبادل فيها كلمة واحدة ، قد وثقت أواصر صداقتنا .

كنت متعبا . وقادني البواب الى غرفته حيث استطعت أن أغتسل . ثم تناولت قهوة الصباح ممزوجة باللبن، وكانت لذيذة جدا . ولما خرجت كان ضوء الصباح قد غمر الكون ، ورأيت التلال التي تفصل مارنجنو عن البحر ، وكانت السماء تملؤها ألوان حمراء . والرياح التي تهب عبر التلال تحمل معها رائحة الملح . وكان يبدو أن هذه بشائر يوم لطيف . لقد مضى زمن طويل لم أطوف خلاله في الريف ، وشعرت بأن سروري سيكون عظيما اذا أنا خرجت لانتزه، غير أن وجود أمي منعي من ذلك .

ولكنني وقفت في الفناء تحت نبات الدلب المتسلق ، وأخذت أتففس رائحة الارض المنعشة ولم أعد أشعر بحاجة الى النوم . وفكرت في زملاء المكتب . فقي مثل هذه الساعة ينهضون للذهاب الى عملهم ، أما بالنسبة لي فكانت أصعب الساعات . وفي حين كنت أفكر في مثل هذه الاشياء سمعت رنين جرس يدق في داخل المبنى ، وهرجا ومرجا خلف

النوافذ ، ثم ساد الهدوء • وكانت الشمس قد ارتفعت اكثر من قبل في السماء وبدأت تشيع الدفء في قدمي • وعبر البواب الفناء وقال لي ان المدير يستدعيني • وذهبت الى مكتبه حيث طلب مني أن أوقع على بعض الاوراق وكان يرتدي حلة سوداء ذات سروال مخطط • وتناول التليفون بيده وقال لي : « ان موظفي حفل الجناز وصلوا الى هنا منذ قليل ، وسأطلب منهم أن يغلقوا التابوت • فهل تريد أن تلقي على أمك آخر نظرة » ؟ • ولكنني قلت : « لا » • وحينئذ تحدث في التليفون قائلاً : « فيجارك •• قل لهم انهم يستطيعون الذهاب » •

وبعد ذلك قال لي انه سيحضر الدفن ، فشكرته • وجلس خلف مكتبه وقد وضع أحد ساقيه القصيرتين على الاخرى • وقال لي انني وهو فقط سنحضر الدفن مع الممرضة المنوط بها هذا العمل ، وأن باقي النزلاء لا ينبغي عليهم أن يشهدوا ذلك • وأضاف : انه أذن لهم فقط بالسهر بجوار الفقيدة لان « هذه مسألة انسانية » • ووافق فقط على أن يسير في موكب الجنازة صديق كهل لأمي هو : « توماس بيريز » • وهنا ابتسم المدير وقال : « أنت تعرف •• انه شعور صبياني بعض الشيء ، ولكنه هو وأمك لم يكونا يفارقان بعضهما بعضا أبداً • وكان نزلاء الملجأ يداعبونهما ويقولون لبيريز : هذه خطيبتك فكان يضحك • وكان هذا يدخل السرور على قلوبهما • ولا شك في أنه صدم كثيراً بموت السيدة ميرسول ، ولم يكن في وسعي أن أرفض طلبه ، السير في موكب الجنازة • ولكنني منعتهم من السهر ليلة أمس كتعليمات الطبيب الزائر » •

وظللنا صامتين بعد ذلك فترة طويلة • ونهض المدير وأطل من نافذة مكتبه ثم قال : « ها هو ذا قسيس مارنجو •• لقد أقبل مبكراً » •

وأضاف قائلاً : انه لا بد من السير ثلاثة أرباع الساعة على الاقل للوصول الى الكنيسة الموجودة في القرية ذاتها . ونزلنا ، ووجدنا القسيس أمام المبنى ومعه غلامان من أفراد فرقة « الكورس » لتلاوة الاناشيد الدينية وكان أحدهما يحمل مبخرة ، وقد مال الكاهن نحوه لكي يضبط طول السلسلة الفضية . ولما وصلنا اليهم انتصب القسيس ، وقال لي « يا ولدي » وتحدث معي قليلا ، ثم دخل المبنى وتبعته .

وألقيت نظرة على التابوت فوجدت أن مسامير « القلاووظ » قد أحكم دقها فيه وقد وقف الى جانبه في القاعة أربعة رجال يتشحون بالسواد . وسمعت في الوقت نفسه المدير يقول ان العربة تنتظر على الطريق ، وان القسيس بدأ يتلو صلواته . ومنذ هذه اللحظة بدأ كل شيء يجري بسرعة . فقد تقدم الرجال نحو التابوت ومعهم قطعة من الجوخ ، أما القسيس وتابعاه ، المدير ، وأنا ، فقد خرجنا . وأمام الباب كانت تقف سيدة لم أكن أعرفها ، وقدمني المدير اليها قائلاً : « مسيو ميرسول » ، ولم أسمع اسم السيدة ، ولكنني فهمت فقط أنها مرضعة منتدبة . وأحنف وجهها النحيل الطويل من غير أن تبتمس ثم وقفنا على هيئة صف لكي تتيح المرور للجنة . وتبعنا حاملي النعش وخرجنا من الملجأ . وأمام الباب كانت تقف عربة ، مجلوة ، طويلة ، ولامعة ، ويخبل لمن يراها أنها ذات خطوط ، وبجانبتها كان يقف المشرف على الجنازة ، وهو رجل نحيل يرتدي ثيابا تثير الضحك ، وبجواره رجل كهل يسني بطريقة عجيبة . وفهمت ان هذا الأخير هو مسيو بيريز ، وكان يضع فوق رأسه قبعة مستديرة من اللباد اللين أطرافها عريضة (وقد خلعها حينما مر التابوت عند الباب) ، وكان يرتدي حلة لها بنطلون ضيق من أسفل عند الجذء ، وبرزت من الياقة

الكبيرة لقميصه الابيض عقدة من القماش الاسود صغيرة الحجم للغاية .
وكانت شفتاه ترتجفان تحت أنفه الذي تنتشر فوقه نقط سوداء . وكانت
تتدلى من تحت شعره الابيض الناعم أذنان كبيرتان حمراوان لهما شكل
عجيب ، وكانت مقارنتهما بوجهه الاصفر الباهت تصدم العين . وحدد
لنا المشرف على الجنازة أمكتتنا في الموكب . فسار القسيس في المقدمة ،
وخلفه العربة يحوطها أربعة رجال ، ثم المدير نفسه والمرضة ومسيو
بيريز .

وكانت الشمس حينئذ تسطع في كبد السماء . وكانت الحرارة تزداد
باستمرار . ولا أعرف لماذا توقفنا طويلا قبل أن نبدأ السير . وكنت
أشعر بالحر تحت ملابسي ذات اللون الفاقع . وخلع مسيو بيريز قبعته
مرة أخرى ، واتجهت قليلا الى ناحيته ، وأخذت أتطلع اليه . وتحديث
المدير حينئذ معي عنه ، فقال انه كان يذهب هو وأمسي كل مساء للتنزه
حتى مشارف القرية ، تصحبهما الممرضة . اني أفهم أمي فهما تاما ، فهي
تحب مناظر الطبيعة ، فالطريق تحوطه أشجار السرو التي تؤدي الى
التلال المرتفعة نحو السماء ، والارض تختلط فيها الالوان الحمراء
والخضراء ، وكانت المنازل في هذه المنطقة نادرة ولكنها حسنة الشكل .
ولا بد أن المساء في هذه الانحاء يبدو شاعريا يأخذ بمجامع الالباب . أما
اليوم فقد كانت الشمس قاسية في حرارتها الى درجة خيل اليّ معها أنها
جعلت السهل يختلج من تحتها ، وجعلت المناظر الطبيعية تفقد جمالها
المعهود .

وبدأنا نسير . وفي هذه اللحظة فقط لمحت بيريز يمرج قليلا . وأخذت
العربة تسرع في سيرها شيئا فشيئا مما جعل الكهل يترنح في مشيته .

ولم يستطع أحد الرجال الذين يسرون بجانب العربة أن يجارياها في سرعتها ، فتخلف قليلا وأصبح الآن يسير في محاذاتي • واستبدت بي الدهشة للسرعة التي تصعد بها الشمس في السماء • وكانت أغاني الحشرات وحفيف العشب تملأ الجو بأصوات تشبه الطنين • وكان العرق يتصبب فوق خدي ، ولما لم تكن معي قبعة فقد أخذت أحرك منديلي أمام وجهي لكي أرطب بشرتي • وفي هذه اللحظة قال لي المشرف على الجنازة شيئا لم أسمعه ، وحينئذ أخذ يجفف صلغته بمنديل كان يمسك به في يده اليسرى ، أما يده اليمنى فكانت تمسك بطرف قبعة « كاسكيت » • وقلت له مستفهما : « ماذا كنت تقول ؟ » فقال وهو يشير الى السماء : « انها تضربنا فوق رؤوسنا » • فقلت له : « نعم » • وبعد قليل سألتني : « هل أمك هي التي في التابوت ؟ » فقلت له مرة أخرى : « نعم » • وعاد يسألني : « هل هي عجوز ؟ » فقلت له : « تقريبا » ، وذلك لاني لم أكن أعرف سنها بالضبط • وبعد ذلك سكت •

ونظرت خلفي فوجدت بيريز على بعد نحو خمسين مترا منا • وكان يحاول المثي بسرعة لكي يلحق بنا ، وهو يهز قبعته بطرف يده • ونظرت الى المدبر أيضا فرأيته يسير في كبرياء وثقة بنفسه ، من غير أن يقوم بأية حركة لا فائدة منها • وكانت بعض قطرات العرق تلمس على جبهته ، ولكنه لم يجففها •

وبدا لي أن الموكب يسير بسرعة أكبر من ذي قبل • وكان الريف من حولي لا يزال يسطع فيه الضوء بشدة ويكاد يختنق بالشمس • وكان لمعان السماء لا يحتمل ، وبلغ من شدة حرارة الشمس أن القار (الزفت) انفجر وساح في جانب من الطريق وهو طريق يبدو أنه أصلح حديثا •

وقد انغرت أحذيتنا في هذا القار وتركت سطحه أملس لامعا . وكدت أصاب بالدوار بين السماء الزرقاء والبيضاء ، وبين الالوان السوداء الرتيبة التي أشاهدها أمامي : سواد القار اللزج، وسواد الثياب الكالحة، وسواد العربة اللامع . ويضاف الى هذا كله : الشمس ، ورائحة الجلد والروث المنبعثة من العربة ، ورائحة البخور ، والتعب الذي أعانيه بعد ليلة من السهاد ، كل هذا كان يرهق نظري ويشتت أفكاري .

والثقت مرة أخرى خلفي فوجدت بيريز لا يزال بعيدا جدا عنا وقد غرق في لجة الحر ، ثم لم يلبث أن اختفى عن نظري . ونبين لي بعد قليل انه ترك الطريق العام وسار في الحقول ، ورأيت الطريق أمامي ينحني وفهمت أن بيريز الذي يعرف هذه المنطقة كثيرا أراد أن يختصر الطريق لكي يلحق بنا ، ولم نلبث أن رأيناه بيننا . وعند منحني الطريق اختفى عن نظرنا مرة أخرى وتوغل في الحقول كما فعل في المرة السابقة وكرر ذلك عدة مرات . أما أنا فكنت أشعر بالدماء تغلي في رأسي .

ومر بعد ذلك كل شيء بسرعة وبصورة طبيعية الى حد انني لم أعد أذكر ما حدث على حقيقته . والذي أذكره فقط أنه عند مدخل القرية تحدثت معي الممرضة . كان صوتها فريدا لا يتفق مع وجهها ، فقد كان صوتها رخيفا جميلا ، مرتعشا . قالت لي : « اذا سار المرء ببطء ، فانه يتعرض لضربة الشمس . واذا سار بسرعة فانه يتصبب عرقا ، وحينما يصل الى الكنيسة يجد نفسه قد أصيب بالبرد » . وكان معها حق . ولم يكن هناك مخرج لهذه المشكلة . كما أنني لا أزال أذكر بعض صور لهذا اليوم . . وجه بيريز مثلا ، حينما لحق بنا في آخر مرة قرب القرية . فقد كانت قطرات كبيرة من الدموع تلمع على وجنتيه ، من فرط ما كان يشعر

به من أسى وألم . ولكن هذه الدموع لم تتساقط ، وانما احتجزتها
التجاويد ، وتجمعت كبقع لامعة من الماء فوق وجهه المحطم . وأذكر أيضا
الكنيسة ، والقرويين الذين كانوا يقفون على الافاريز ، والازهار الحمراء
لنبات « الجيرانيوم » (الخبيزة الافرنجي) على قبور المدفن ، ونوبة
الغيوبة التي أصابت بيريز ، والتراب الاحمر الذي أهيل على تابوت أمي،
والجذور البيضاء التي اختلطت به ، والناس الذين احتشدوا، والاصوات،
والقرية ، والانتظار أمام المقهى ، وأزيز محرك السيارة المستمر ، كما أذكر
ابتهاجي حينما عاد بي الاوتوبيس الى مدينة الجزائر حيث استقبلتني
أنوارها الساطعة وقد استحوذت عليّ حينئذ فكرة واحدة :

هي أن أذهب لأنام اثنتي عشرة ساعة !!

الفصل الثاني

لما استيقظت ، فهمت لماذا كان يبدو على رئيسي الاستياء حينما طلبت منه منحني يومين اجازة : ذلك أن اليوم هو السبت • كنت نسيت ذلك ، ولكن هذا الخاطر طرأ على فكري حينما نهضت • فقد كان من الطبيعي أن يظن رئيسي أنني سأحصل اذن على اجازة تمتد أربعة أيام ، اذا حسبنا كذلك يوم الاحد ، وهذا شيء لم يكن يسره بالطبع • ولكن الذنب لم يكن ذنبي ، ان أمي دفنت امس بدلا من اليوم، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فاني كنت سأحصل على أي حال على يومي السبت والاحد كاجازة ، لانهما الاجازة الاسبوعية • ولكن هذا كله لا يمنعني على أي حال من أن أفهم موقف رئيسي •

وقد نهضت بصعوبة لأنني كنت حتى ذلك الوقت متعبا من رحلة الامس • وحينما كنت أحلق ذقني فكرت فيما سوف أفعله بعد ذلك وقررت أن آخذ حماما • فركبت الترام وذهبت الى مبنى حمام الميناء ، وهناك ألقيت بنفسي في مياه البحر • ورأيت على مقربة مني في الماء « ماري كاردونا » وهي فتاة كانت تعمل معي فيما مضى في المكتب حيث كانت تكتب على الآلة الكاتبة ، وكنت شغوفاً بها في ذلك الوقت ، وأعتقد أنها هي أيضا كانت معجبة بي • ولكنها تركت المكتب بعد قليل

من غير أن تتاح لنا الفرصة لتوثيق العلاقة بيننا . وفكرت في أن أصعد الى ظهر « الشمندورة » الطافية على الماء ، وبينما أنا أحاول أن أفعل ذلك اذ لمست يدي .. نهدي ماري ، وكنت لا أزال في الماء حينما رأيتها قد صعدت فوق الشمندورة واستلقت عليها ، ثم التفتت ناحيتي وقد تهدل شعرها فوق عنقها ، وراحت تضحك . وقفزت الى جوارها فوق التسنندورة . كان الجو لطيفا . وملت برأسي الى الخلف ووضعت فوق بطنها ، كما لو كنت أداعبها . ولم تقل شيئا ، فظلت محتفظا بهذا الوضع ، وأخذت أتطلع الى السماء الزرقاء المزدانة بألوان ذهبية . وأحسست بطن ماري تنبض تحت عنقي ، ومكثنا فترة طويلة من الوقت فوق الشمندورة نصف نائمين . ولما اشتدت أشعة الشمس، نهضت ماري وغاصت في الماء، فتبعتها وأمسكت بها وأحطت خصرها بيدي وأخذنا نسيح معا ، وهي تضحك دائما . ولما عدنا الى الشاطئ حيث ظللنا برهة نجفف أجسامنا قالت لي : « اني أشد سمرة منك » وحينئذ سألتها : هل تريدان أن تأتي معي الى السينما في المساء ؟ فضحكت أيضا وقالت انها تريد أن ترى فيلما لفرندندل . وبينما كنا نرتدي ملابسنا اذ بدت عليها امارات الدهشة الشديدة لما رأتهني أضع رباط عنق أسود ، وسألتني هل أنت في حالة حداد ؟ فقلت لها ان أمي ماتت . وسألتني : « منذ متى ؟ » فقلت لها : « منذ أمس » . فوجمت قليلا ولكنها لم تعقب بشيء . وأحسست برغبة في أن أقول لها ان هذا لم يكن خطئي ولكنني توقفت وتذكرت أنني سبق أن قلت مثل ذلك لرئيسي . وقد كان هذا لا يعني شيئا . وعلى أية حال فان الانسان يكون دائما مذنبا بصورة ما .

وفي المساء كانت ماري قد نسيت كل شيء ، وكان الفيلم مؤثرا في

بعض مواقفه ثم أصبح مضحكا للغاية • وكانت تضع ساقها ملاصقة لسافي ، أما أنا فقد أخذت أداعبها • • • ولما انتهت السهره قبيلتها ، ولكني كنت مضطربا فلم تكن القبله جيدة • ولما خرجنا من السينما جاءت معي الى المنزل •

وحنما اسيقظت في الصباح كانت ماري فد عادت التيقه ، وكانت فد أفهمتني من قبل انها ينبغي أن تزور خالتها • وتذكرت أن اليوم هو الاحد ، وفد ضاضي ذلك كثيرا ، فأنا لا أحب أيام الاحاد • وحينئذ عدت الى فراشي ، وأخذت أبحث في الوسادة عن رائحة العطر التي ركبها شعر ماري فيها ، ونمت حتى الساعة العاشره • ثم أخذت أدخن وأنا في الفراش حتى الظهر • ولم أشأ أن أتناول طعام الغداء عند « سيلست » كما هي العادذ لانهم هناك كانوا سبلقون عليّ من غير شك أسئلة كثيرة ، وأنا لا أحب ذلك • فسلفت بعض البيض وأكلته من غير خبز لانه لم يكن عندي نبيء منه ، ولاني لم أرغب في النزول لكي أشتريه •

وبعد أن تناولت غدائي شعرت بشيء من الضيق وأخذت أجول في الشقة • لقد كانت مريحة حينما كانت أومي فيها • أما الآن فقد أصبحت كبيرة جدا بالنسبة لي ، مما اضطرني الى أن أنقل متضدة الطعام الى غرفة نومي • انني لم آكن أعيش الا في هذه الغرفة ، بين المقاعد المصنوعة من القش ، المقعرة قليلا ، والدولاب الذي اصفرت مرآته ، ومنضد التواليت ، والسرير النحاسي • أما باقي أثاث المنزل فلم آكن في حاجة اليه • ولما لم أجد بعد ذلك شيئا أفعله تناولت صحيفة قديمة وأخذت أقرؤها • وقطعت منها اعلانا عن أملاح « كروشن » وألصقته في كراسة.

قديمة أضع فيها الاشياء الطريفة التي أعثر عليها في الصحف ، وغسلت كذلك يدي ، وأخيرا ذهبت الى الشرفة وجلست فيها •

كانت غرفتي تطل على الشارع الرئيسي في الضاحية • وكان الجو جميلا بعد ظهر ذلك اليوم • ومع ذلك فقد كان الشارع موحلا ، وكان المارة به قليلين ومتعجلين أيضا • ورأيت عائلات في طريقها الى النزهة • وشاهدت ولدين صغيرين يرتديان حلتين كحلل البحارذ ، وكان البطلون يهبط الى أسفل الركبة ، وكان يبدو أنهما شبه مكبلين في ملابسهما « المحزقة » ، وبنتا صغيرة لها « فيونكة » كبيرة وردية اللون وتضع في قدميها حذاء أسود لامعا • وكانت تسير أمامهم خلفهم وهي سبدة ضخمة الجسم ترتدي ثوبا من الحرير كستنائي اللون ، والاب ، وهو رجل صعب الجسم ونحيف ، وكنت أعرفه بالنظر فقط لاني كنت قد شاهدته من قبل • وكان يضع على رأسه قبعة من القش ويضع في مقدم قميصه « بايون » ويمسك في يديه عصا • ولما رأيته مع زوجته ، فهمت لماذا يقولون عنه في الحي انه رجل محترم • وبعد فترة من الوقت بدأ شبان الضاحية يقبلون بشعورهم اللامعة وكان كل منهم يضع رباط عنق أحمر اللون ويرتدي « جاكيت » محكما جدا حول جسده وله جيب صغير مطرز ويضع في قدميه حذاء طرفه مربع الشكل • وأيقنت أنهم ذاهبون الى السينما التي في وسط البلد ، وهذا هو السبب في أنهم جاؤا مبكرين وساروا مسرعين متجهين الى الترام وهم يضحكون ويصخبون •

ثم بدأ الشارع يخلو بعد ذلك من المارة شيئا فشيئا ، وكانت دور السينما والمسارح قد بدأت حينئذ تعرض برامجها •• فيما أعتقد • ولم

يعد في الشارع سوى أصحاب الحوانيت والقطط • وعلى الافريز المقابل أخرج تاجر الدخان مقعده ووضعه أمام الباب ثم جلس عليه وقد وضع احدى ساقيه في جانب وسافه الاخرى في جانب آخر (كما لو كان يمتطي دابة) واتكأ بذراعيه على ظهر المقعد • وعربات الترام التي كانت مزدحمة بركابها منذ قليل أصبحت شبه نارعة • وفي مقهى « بيرو » الصغير الذي يقع الى جوار حانوت الدخان كان « الجرسون » يكنس نسارة الخشب من قاعها الخالية من الزبائن • لقد كان يوم أحد بمعنى الكلمة •

وقلبت وضع مقعدي وجعلته مشابها لما فعله تاجر الدخان لاني وجدت ذلك الوضع اكثر راحة • ودخنت سيجارتين ، ثم دخلت الى الغرفة لتناول قطعة من الشيكولاتة ثم عدت لكي أكلها في النافذة • وكانت السماء صافية منذ قليل ، ولكنها لم تلبث ان اكفهرت وأيقنت أننا مقبلون على عاصفة من عواصف الصيف • وتراكت السحب في السماء كندير بسقوط المطر ، وازداد الجو اكفهرارا • وظللت فترة طويلة أرقب السماء •

وفي الساعة الخامسة أقبلت عربات الترام وهي تحدث صخباً وضجيجاً ، وكانت تحمل حشود المتفرجين العائدين من الملعب الرياضي للضاحية ، وقد وقفوا على درج العربات وعلى حواجزها • ثم أعقبتها عربات أخرى تحمل اللاعبين ، وقد عرفت ذلك من الحقايب التي كانت معهم ، وكانوا يتصايحون ويغنون بصوت مرتفع لان ناديبهم قد فاز • وقد أوما لي كثير منهم • بل ان أحدهم صاح قائلاً لي : « لقد تغلبنا

عليهم » • وقد رددت عليه قائلاً : « نعم » وأنا أهرز رأسي • ومنذ هذه اللحظة بدأت سيارات الاوتوييس تقبل بكثرة •

كان النهار قد بدأ يولي الادبار • وفوق أسطح المنازل كانت السماء تبدو في لون أرجواني ، ولما أرخى الليل سدوله بدأ النشاط يدب في الشوارع • كان المنتزهون قد بدأوا يعودون الى دورهم • وقد استطعت أن أميز « الرجل المحترم » وهو يسير وسط أناس آخرين • وكان الاطفال يكون أو يسحبهم ذوهم من أيديهم • ولم تلبث دور سينما الحي أن بدأت تصب في الشارع أمواجاً كبيرة من روادها • وكان الشبان منهم قد شاهدوا فيلماً يعرض معامرات • أما الذين أخذوا يعودون من دور السينما التي في المدينة فقد بدأوا يصلون بعد ذلك بقليل • وكان يبدو عليهم انهم اكثر رزاة • وكانوا يضحكون أيضاً • ولكن كانت تبدو عليهم بين حين وحين امارات التعب والفكير • لقد ظلوا في الشارع على الرصيف المقابل يمشون جيئةً وذهاباً • وشاهدت فتيات الحي يسرن وقد تهدلت شعورهن على اكتافهن ، وأمسكن بأذرع بعضهن البعض ، ووقف الشبان لكي يعترضوا طريقهن وأخذوا يلقون اليهن بدعابات أثارت ضحكهن وهن يتلفتن الى الوراء • وكثيرات منهن ، وكنت أعرفهن ، أو مأن الي » •

وفي تلك اللحظة أضيئت فجأة مصابيح الشوارع فبدت النجوم الاولى التي ظهرت في السماء شاحبة اللون ازاءها • وأحسست بكلل في عيني من فرط النظر الى الافاريز والى الناس الذين يتبدلون ، والاضواء التي تتغير • وكانت المصابيح تعكس أضواءها على بلاط الشارع المبلل وعلى عربات الترام فتجعلها تومض ومضات منتظمة ، كما كانت تعكس هذه الاضواء على الشعور اللامعة ، أو على ابتسامة ، أو سوار فضي •

ولم تلبث عربات النرام أن قل مسيرها وازداد الليل قتامة فوق الشجر
والمصاييح ، وخلا الحي من المارة الى درجة أن القلط أصبحت تعبر
الشارع ببطء شديد . وكانت رقبتسي قد أوجعتني من طول ما أسندتها
ظهر مقعدي . ونزلت الى الشارع لاشترى خبزا وفطائر ، ثم أعددت
طعامي وأكلت وأنا واقف . وأردت أن أدخن سيجارة عند النافذة ،
ولكن الجو كان قد اعتدل وشعرت بشيء من البرد . وأغلقت النوافذ ،
وحين عودتي رأيت في المرآة طرف المنضدة وعليها موقد الكحول وبجانبه
بعض قطع الخبز . وخطر في ذهني حينئذ أن هذا يوم أحد متعب ، وأن
أمي قد تم دفنها ، وأني سأسأنف عملي غدا ، وان شيئا لم يتغير .

الفصل الثالث

لقد عملت اليوم كثيرا في المكتب • وكان الرئيس لطيفا • وقد سألتني عما اذا كنت قد أرهقت نفسي بالعمل اكثر مما ينبغي ، كما أراد أن يعرف سن أمي • فقلت له : « نحو ستين عاما » ولا أعرف لماذا بدا عليه حينئذ كأنما سرى عنه ، وأن المسألة تعتبر منتهية •

وكانت فوق منضدتي كومة من « بوالص الشحن » تقتضي مني أن أراجعها كلها • وقبل أن أغادر المكتب للذهاب لتناول الغداء غسلت يدي • اني أحب هذه اللحظة ظهر كل يوم • أما في المساء فاني أكون أقل سرورا لان المنشفة (القوطة) المعلقة التي تستخدم في تجفيف الايدي ، تكون اكثر تشبعا بالماء بعد أن تكون قد استعملت طوال النهار • وفد أبديت هذه الملاحظة ذات يوم لرئيسي ، وقد أجاب بأن هذا شيء يؤسف له وان كان في الوقت نفسه قليل الاهمية • وخرجت بعد قليل ، وكانت الساعة تبلغ نحو الثانية عشرة والنصف ، مع عماويل الذي يتولى شؤون الشحن بالمكتب • وكان المكتب يطل على البحر ، وأمضينا بعض الوقت تتطلع

الى سفن الشحن في الميناء الذي يكاد يحترق من حرارة الشمس • وفي هذه اللحظة وصلت سيارة نقل وهي تحدث ضجيجا عظيما بسلاسلها وانفجاراتها • وسألني عمانويل : « هل نركب هذه السيارة ؟ » وشرعت أجري • ولكن السيارة تجاوزتنا فأسرعنا خلفها • وغرقت في الضجة والغبار • ولم أعد أرى شيئا ، وكذلك لم أعد أحس الا بأننا نجري بغير انتظام في وسط الآلات الرافعة (الاوناش) والصواري التي تتراقص في الافق ، وهياكل السفن التي تحاذينا • وأمسكت أنا أولا بحافة السيارة ثم قفزت وهي مسرعة • وحينئذ ساعدت عمانويل على الصعود والجلوس • كنا نلهث ، وأخذت سيارة النقل تقفز فوق المربعات غير المتساوية التي في الميناء ، في وسط الغبار والشمس • وأخذ « عمانويل » يضحك من أعماق قلبه •

ووصلنا الى مطعم « سيلست » ونحن تتصبب عرقا • ان سيلست دائما هناك بيطنه الضخم ، ومئزره «مريلته» وشاربه الابيض • وسألني: هل كانت الاحوال تسير على ما يرام فقلت له : نعم ، وقلت له أيضا اني جائع • وأكلت بسرعة شديدة ثم تناولت قدحا من القهوة • وعدت الى منزلي ونمت قليلا لاني كنت قد احتسيت كثيرا من البيذ ، ولما استيقظت شعرت برغبة في التدخين • كنت قد تأخرت فأسرعت لكي ألحق بالترام • وظللت أعمل طوال فترة ما بعد الظهر • كان الجو حارا جدا في المكتب ، وحينما خرجت في المساء شعرت بسرور لاني سأعود الى المنزل ، وأخذت أسير ببطء فوق رصيف الميناء • كانت السماء تبدو خضراء ، وساورني احساس بالسعادة • وعدت مباشرة الى المنزل لاني كنت أريد أن أعد لنفسي بعض البطاطس المسلوق •

وفي اثناء صعودي فوق الدرج المظلم ، اصطدمت بجاري العجوز « سالامانو » الذي يقيم في شقة تقابل شقتي . وكان مع كلبه الاسباني الذي يرى معه منذ ثماني سنوات . وهذا الكلب به مرض في جلده كاد أن يفقده كل شعره وجعله مغطى بالثور والقشور البنية اللون . وقد أصبح العجوز « سالامانو » يشبهه من طول عثرتهما ، ولانهما يعيشان معا وحيدين في غرفة واحدة صغيرة . فهو أيضا في وجهه ثور يميل لونها الى الحمرة ، وشعره الاصفر تساقط . وقد أخذ الكلب عن سيده عادة السير وهو محدودب الظهر ، وقد مد خطمه الى الامام وتوترت رقبته . ويبدو عليهما أنهما من جنس واحد، ومع ذلك فان كلا منهما يكره الآخر . والعجوز يأخذ كلبه للنزهة مرتين في كل يوم ، في الساعة الحادية عشرة صباحا وفي السادسة مساء . وهما لم يغيرا خط سيرهما منذ ثماني سنوات ، ويمكن رؤيتهما دائما في شارع « ليون » والكلب يسحب الرجل حتى ليكاد « سالامانو » العجوز أن ينكفيء عليه ، وحينئذ يضرب الكلب ويشتمه . ويستحوذ الرعب على الكلب ويدعن لسيده الذي يسحبه بدوره . وحينما ينسى الكلب ، ويبدأ بسحب سيده من جديد يتلقى الضرب والشتائم مرة أخرى . وحينئذ يظلان معا على الافريز وهما يتنظلمان الى بعضهما بعضا : الكلب في فزع ، والرجل في سخط وكراهية . وهذا هو حالهما دائما كل يوم . وحين يريد الكلب أن يبول، فان العجوز لا يترك له فسحة من الوقت لذلك ، انه دائما يسحبه ، ويترك الكلب وراءه خطا من القطرات الصغيرة . فاذا بال الكلب في الغرفة فانه يتعرض للضرب من جديد . وقد استمرت حياتهما على هذا المنوال طوال ثماني سنوات . وسيلست يقول دائما : « ان سالامانو رجل منكود الحظ » ،

ولكن أحدا لا يعرف الحقيقة . ولما قابلت سالامانو على الدرج كان يشتم كلبه قائلا : « يا قدر ! يا تن ! » وكان الكلب يزمجر . وقلت : « مساء الخير » ، ولكن العجوز ظل مستمرا في سبابه . وحينئذ سألته : ماذا فعل الكلب ، ولكنه لم يرد ، وقال فقط : « يا وسخ ! يا تن ! » ورأيته يميل نحو مقود الكلب ، فكلمته بصوت أقوى من ذي قبل ، فرد عليّ وقد ازداد حنقه : « انه دائما هنا » ثم استمر في سيره وهو يسحب الحيوان الذي ترك نفسه بين يدي سيده ، وهو يزمجر .

وفي هذه اللحظة دخل المنزل جاري الثاني الذي يقيم في الطابق نفسه . ويقال عنه في الحي أنه يعيش عائلة على النساء . ومع ذلك فحينما يسأله أحد عن مهنته فانه يزعم أنه يعمل في محل تجاري . وعلى أية حال فهو غير محبوب قط . ولكنه يتحدث معي بين حين وحين ويזורني في شقتي لاني أصغي الي ما يقول . ذلك أني أجد قصصه مشوقة . كما أنني لا أجد أي سبب يمنعني من التحدث معه . وهو يدعى « ريمون ساتتيز » وهو صغير الجسم ، واه منكبان عريضان وأنف ملاكم . وهو دائما أنيق حسن الہزة وقد حدثني هو أيضا عن سالامانو وقال : « يا له من رجل بائس ! » وسألني عما اذا كنت لا أشمئز منه فأجبت بالنفي .

وصعدنا الدرج ، وحينما هممت بأن أتركه قال لي : « ان عندي سجق ونيذ . . فهل لك أن تأكل قطعة معي ؟ » . ورأيت أن هذا سيريني من عناء اعداد طعامي فقبلت . وهو أيضا كان يسكن في غرفة واحدة لها مطبخ من غير نافذة . وفوق سريره كان يوجد تمثال لملاك من الجص ذي لون أبيض ووردي ، وصور لابطال رياضيين وصورتان أو ثلاث لنساء عاريات . وكانت الحجرة قذرة والفرش غير مرتب . وأشعل

أولا مصباحا بتروليا ، ثم أخرج من جيبه ضمادة غريبة الشكل ولفها حول يده اليمنى • وسألته عن ذلك فقال لي انه كان قد تتاجر مع شخص دأب على خلق المشاكل له •

وقال لي ريمون : « أنت تعرف يا مسيو ميرسول اني لست شريرا ، ولكنني سريع الغضب • لقد قال لي هذا الشخص : انزل من الترام اذا كنت رجلا • فقلت له : اذهب والزم الهدوء • ولكنه قال لي اني لست رجلا • وحينئذ نزلت من الترام وقلت له كفى ومن الافضل لك أن تسكت والا فاني سأضربك ضربا موجعا • • فقال لي : بهم ؟ وحينئذ وجهت اليه لكمة ، فتهاوى على الارض • وذهبت لارفعه ، ولكنه أخذ يركلني بقدمه وهو على الارض ، وحينئذ ضربته وركلته مرتين • وتخضب وجهه بالدم • وحينئذ سألته : هل صفيت الآن حسابك معي ؟ فقال لي : نعم •

وطوال هذا الوقت كان ريمون ساتنيز منهمكا في لف الضمادة حول يده • وكنت جالسا على السرير • وحينئذ قال لي : « وهكذا أنت ترى أنني لم أكن السبب ولكنه هو الذي كان يبحث عن المشاكل » وكان هذا صحيحا وسلست له بذلك • ثم قال لي انه يريد أن يستشيرني في هذا الموضوع ، وأني بصفتي رجلا عرك الحياة وخبرها أستطيع أن أساعده ، ثم أردف قائلا انه سيكون صاحبا لي • ولم أقل شيئا ولكنه لم يلبث أن سألني أتريد أن تكون لي صاحبا ؟ فقلت له انه لا يوجد ثمة ما يمنع ذلك ، فبدأ عليه السرور • وأخرج السجق وأنضجه على الموقد ، ثم أعد الاكواب ، والاطباق وأدوات المائدة وزجاجتي النبيذ • وقد فعل كل هذا في هدوء وسكون • وبدأنا نأكل ، وفي اثناء ذلك أخذ يروي لي قصته •

وتردد في البداية بعض الشيء .. ثم قال : « اني أعرف امرأة .. وكانت عشيقتي لي » . وفهمت منه أن الرجل الذي تشاجر معه هو أخو هذه المرأة . وقال لي انه كان ينفق عليها ويعولها . ولم أعقب على حديثه بشيء ، ولكنه أضاف قائلا : انه يعرف ما بشاع عنه في الحي ، ولكنه لا يبالي بذلك ، وأن له ضميرا ، وأنه يعمل في محل تجاري .

ثم قال : « لنعد الى قصتي .. لقد أدركت أن عشيقتي كانت تخونني . ثم قال : انه كان يعطيها ما كان يكفيها لكي تعيش ، وانه كان يدفع ايجار غرفتها ، ويعطيها عشرين فرنكا في اليوم للطعام . وأردف قائلا : ان ايجار غرفتها ، ثلاثمائة فرنك ، يضاف الى ذلك ستمائة فرنك لطعامها ، في الشهر ، وأنه كان يقدم لها زوجين من الجوارب بين حين وحين . وهذا كله ببلغ مجموعه ألف فرنك . وكانت «سيدتي» لا تعمل . ومع ذلك فكانت تقول لي ان النقود التي أعطيها لها لا تفي بمطالبها . وقد قلت لها : لماذا لا تعملين نصف يوم ؟ انك بذلك تريحينني من كثير من الاشياء الصغيرة التي تكونين في حاجة اليها . لقد اشترت لك في هذا الشهر فستانا ومعطفا لهما لون ونوع واحد (انسامبل) ، وأدفع لك عشرين فرنكا كل يوم ، وأدفع لك ايجار الغرفة ، في حين أنك تتناولين القهوة بعد الظهر مع صديقاتك ، وتعطين القهوة ، والسكر . وأنا أعطيك النقود . لقد بذلت جهدي لكي أرضيك ولكنك تقابلين المعروف بالشر ، وعلى الرغم من ذلك فانها لم تعمل ، وكانت تقول انها لم تعثر على عمل ، وأدركت في النهاية أنها تخونني .

ثم قال لي انه وجد تذكرة يانصيب في حقيبتها وانها لم تستطع أن تفسر له كيف اشترتها . وبعد فترة من الوقت عثر معها على اتصال يشب

أنها رهنت سوارين ، وأنه حتى ذلك الوقت كان يجهل أن لديها هذين السوارين • وأردف يقول : « وقد فهمت حينئذ جيدا أنها تخونني ، فهجرتها • ولكنني قبل أن أفعل ذلك ضربتها وكشفت لها عن حقيقتها • وقلت لها ان كل ما تريده هو أن تنسلي بعرضها • ثم قلت لها يا مسيو ميرسول : « أنتِ لا تدركين أن الناس يحسدونكِ على السعادة التي أحققها لكِ • وستعرفين فيما بعد اية سعادة كنتِ تتمتعين بها » •

وأوضح لي انه لذلك في حاجة الى مشورتي • وتوقف قليلا لكي يصلح فتيل المصباح الذي كان قد بدا ينفث الدخان • وكنت أصغي اليه باستمرار • وكنت قد شربت لترا من النيذ وشعرت بسخونة شديدة في صدغي • ودخنت من سجائر ريمون لان سجائري كانت قد نفذت • ومرت آخر عربات الترام وقد حملت معها ضوضاء الضاحية • واستمر ريمون يتكلم • فقال ان ما يضايقه هو أنه لا يزال يشتهيها • ولكنه يريد أن يعاقبها • وقد فكر في بادئ الامر أن يحضرها الى فندق ثم يستدعي بوليس الآداب لكي يسبب لها فضيحة ويكون لها سجل لدى بوليس الآداب • وقد سأل عنها بعض أصدقائه ممن يعيشون في بيئة « البلطجية والعاشرات » فلم يجد دليلا يتمسك به ضدها • وقد قال لهم انه يريد أن يصمها بوصمة هذه البيئة فاقترحوا عليه أن يلفق لها « حادثة » لكي تصبح مشبوهة • ولكن هذا لم يكن هو الشيء الذي يريده • وأخذ يفكر • وقبل ذلك أراد أن يسألني عن شيء ، ولكن قبل أن يتم سؤاله أراد أن يعرف رأيي في قصته فأجبتته بأني لم أصل الى رأي فيها ولكنها على أية حال قصة مشوقة • وسألني : هل تظن أن في الامر خيانة ؟ فقلت له انه يبدو فعلا أنها تخونه • وسألني : هل تعتقد أنه يجب معاقبتها ، وماذا

تفعل لو كنت مكاني ؟ فقلت اني لا أدري حقيقة ماذا يمكن عمله . ولكني فهمت أنه يريد أن يعاقبها . واحتسيت كمية أخرى من النبيذ . وأشعل سيجارة ثم كشف لي عن فكرته . انه يريد أن يكتب لها خطابا شديد اللهجة وفي الوقت نفسه يذكرها بأشياء لكي يجعلها تندم . فاذا جاءت اليه وناما في الفراش يبصق في وجهها ويطردها . ووجدت أن هذه الطريقة تحقق عقابا كافيا . ولكن ريمون قال لي انه يشعر بأنه عاجز عن كتابة الخطاب الذي يريده ، وأنه فكر في أن يستعين بي في كتابته . ولما لم أجب سألني عما اذا كان يضايقني أن نشرع في كتابة الخطاب على الفور فأجبت بالنفي .

وحيث أنه نهض ، بعد أن شرب كوبا من النبيذ ، ورفع الاطباق وبقايا السجق البارد التي تخلفت ، وجفف بعناية مشمع المنضدة . ثم تناول من درج المنضدة الصغيرة المجاورة للفراش ورقة ذات مربعات وغلاف خطاب أصفر اللون ، وقلما صغيرا من الخشب الاحمر ومحبرة مربعة بها مداد بنفسجي . ولما ذكر اسم السيدة تبينت أنها مغربية . وكتبت الخطاب . وقد حررته من غير تبصر بعض الشيء ، ولكني اجتهدت في أن أرضي ريمون لانه لم يكن ثمة سبب يدعوني الى عدم ارضائه . ثم قرأت الخطاب بصوت مرتفع . وأصغى اليّ وهو يدخن ويهز رأسه ، ثم طلب مني أن أقرأه مرة أخرى . وكان مغتبطا اغتباطا تاما . وقال لي : « لقد كنت أدرك ادراكا تاما أنك تفهم الحياة » . وتبينت أنه يخاطبني في ود ، ومن غير تكلف ، ثم أردف يقول : « الآن أنت صديق حقيقي » ، وتأثرت بذلك . ثم عاد يكرر هذه العبارة ووافقته على ما يقول . والواقع أنه لم يكن لدي مانع من أن أكون صديقا له ، وقد كان يبدو عليه بحق انه شديد الرغبة في ذلك . وأغلق غلاف الخطاب ، وقضينا على البقية الباقية

من النيذ • ثم أخذنا ندخن بعض الوقت من غير أن نتكلم وكان السكون يسود ما حول المنزل ، وسمعنا صوت سيارة تنساب على الطريق • وقلت : « ان الوقت متأخر » • وقال ريمون انه يعتقد ذلك أيضا • وقال انه يلاحظ أن الوقت يمضي بسرعة ، وكان ما يقول صحيحا بصورة ما • واستحوذ عليّ النعاس ، ولكنني شعرت بمشقة وأنا أنهض • ولا بد أن امارات التعب كانت تبدو علي ملامحي لان ريمون قال لي انه لا ينبغي أن أذهب • ولم أفهم قصده في بداية الامر • ثم قال لي انه علم بوفاة أمي ولكن هذا شيء كان لا بد من حدوثه يوما ما • وكان هذا هو رأيي أيضا •

ونفضت • وصافحني ريمون بقوة وقال لي ان الرجال يتفاهمون دائما فيما بينهم جدا • وحينما خرجت من الشقة أغلقت الباب خلفي ، وظللت لحظات في الظلام • كان المنزل يسوده الهدوء ، وكان يصعد من أعماق بئر السلم تيار رطب من الهواء • ولم أسمع الا نبض الدم وهو يطن في أذني • ووقفت ساكنا من غير حراك • ولكن في حجرة «سالامانو» العجوز كان الكلب يزمجر بصوت خافت •

الفصل الرابع

بذلت جهدا كبيرا في العمل طوال الاسبوع • وجاءني ريمون وقال انه أرسل الخطاب وذهبت الى السينما مرتين مع عمانويل الذي لا يفهم دائما ما يعرض أمامه على الشاشة ولهذا لا بد من الشرح له • وكان أمس يوم السبت وحضرت ماري كما اتفقنا • وكنت في غاية الشوق لرؤيتها لانها ترتدي فستانا جميلا به خطوط حمراء وبيضاء ، وتضع في قدميها صندلا من الجلد • وكان من السهل أن أخمن أن نهديها صلبان ، وكان الشمس قد أكسبت وجهها لون الورد • وركبنا الاوتوبيس الذي حملنا عدة كيلومترات الى خارج مدينة الجزائر ووصلنا الى بلاج ضيق يقع بين الصخور وتحف به من جهة الارض أشجار العناب • وشمس الساعة الرابعة لم تكن شديدة كثيرا ، ولكن الماء كان دافئا ، والامواج الصغيرة طويلة ومتكاسلة • وعلمتني ماري لعبة • فقد كانت وهي تسبح، تستقبل الامواج ثم تشرب الزبد الذي يعلو ذروتها وتملا به فمها ، ثم تستلقي على ظهرها لكي تنفثه بعد ذلك نحو السماء • وكان الماء المنبثق من فمها على هذه الصورة يتخذ شكل رغوة من الداتلا لا تلبث أن تختفي في الهواء أو تعود فتساقط كالطر الدافئ على وجهي • ولكن بعد فترة من الوقت شعرت بقمي يلتهب من الماء الملح • وحينئذ أقبلت ماري

نحوي والتصقت بي ووضعت فمها على فمي • وقد أنعش لسانها شفتي ،
وأخذنا تتدحرج بين الامواج بعض الوقت •

ولما ارتدينا ملابسنا على الشاطئ ، أخذت ماري تنظر اليّ بعينين
تلمعان ، فعانقتها • ومنذ هذه اللحظة لم تتكلم ، وانما ضممتها نحوي
رأسرعا نبحث عن أتوبيس لكي نعود الى شقتي ونرتمي على الفراش •
وقد تركت نافذتي مفتوحة ، وأحسنا بحلاوة ليل الصيف وهو يسيل
على جسدينا الاسمرين •

وفي الصباح ، ظلت ماري معي وقلت لها اننا سنتناول طعام الغداء
معا • ونزلت لكي أشتري بعض اللحم • وفي أثناء صعودي سمعت صوت
امرأة في حجرة ريمون • وبعد قليل أخذ سالامانو العجوز يزجر كلبه ،
وسمعنا حفيف نعل ومخالب على الدرج الخشبي للسلم ثم السباب
المألوف : « يا قدر •• يا تنن » •• لقد خرجا الى الشارع • ورويت لماري
قصة الرجل العجوز ، فضحكت ، وكانت ترتدي بيجامة لي رفعت اكمامها
الى أعلى • ولما ضحكت اشتيتها مرة أخرى • وبعد فترة من الوقت
سألتنني عما اذا كنت أحبها • فقلت لها ان هذا ليس مهما ولكن يبدو أنني لا
أشعر نحوها بحب • وحينئذ بدا عليها الحزن • ولكنها وهي تعد الطعام،
ومن غير مناسبة ، ضحكت مرة أخرى الى حد أنني عانقتها • وفي هذه
اللحظة سمعنا ضوضاء شجار في شقة ريمون •

وقد ارتفع في بادئ الامر صوت حاد لامرأة ، ثم سمعت ريمون
يقول : « لقد أجرت في حقي •• لقد أجرت في حقي •• وسأعلمك
كيف تجرمين في حقي » • وارتفع صوت ضوضاء خافتة ثم صرخت المرأة
صرخة بلغت من قوتها ان امتلات بسطة السلم فورا بالناس • وخرجت أنا
وماري أيضا • وكانت المرأة تصرخ باستمرار ورمسه ن يضربها من غير

توقف • وفالت لي ماري ان هذا شيء بشع ، ولم أجب بشيء • وطلبت مني أن أذهب لاحضار أحد جنود الشرطة ولكنني قلت لها اني لا أحبهم • ومع ذلك فقد حضر جندي مع الساكن الذي يقيم في الطابق الثاني ، وهو سباك • ودق الشرطي على الباب فلم يعد يسمع شيئاً بالداخل • فأخذ يدق بصورة أعنف ، وبعد لحظة بكت المرأة ، وفتح ريمون الباب ، وفي فمه سيجارة ، وهو يتكلف الابتسام • وأسرت المرأة نحو الباب وقالت للشرطي ان ريمون ضربها • وسأله الشرطي : ما اسمك ؟ وأجاب ريمون على سؤاله والسيجارة بين شفثيه وصاح الشرطي : « انزع السيجارة من فمك حينما تكلمني » • وتردد ريمون ، ونظر اليّ ، ثم سحب « نفساً » من سيجارته • وفي هذه اللحظة صفعه الشرطي صفقة قوية بيده السميقة الثقيلة على خده ، فطارت السيجارة بعيداً عدة أمتار • وتغير وجه ريمون ولكنه لم يقل شيئاً حينئذ ، ثم سأل بصوت ذليل اذا كان يستطيع أن يلتقط « عقب سيجارته » • فسمح له الشرطي بذلك ولكنه أردف قائلاً : ولكنك في المرة القادمة ستعرف أن جندي الشرطة ليس قراقوزا • وفي اثناء ذلك كانت الفتاة تبكي ، وعادت تقول : « لقد ضربني •• انه قواد » وحينئذ قال ريمون : « يا سيدي الشرطي •• ان كلمة قواد هذه تدخل تحت طائلة القانون حينما تطلق على رجل » ولكن الجندي طلب منه أن يغلق « فم الحيوان » الذي يتكلم به والتفت ريمون نحو الفتاة وقال مهديداً : انتظري يا صغيرتي •• سوف تتقابل • وعاد الشرطي يطلب منه اغلاق فمه ، وقال ان الفتاة يجب أن تغادر المنزل وأن يظل هو في غرفته في انتظار استدعائه لاستجوابه في القسم • ثم قال الشرطي لريمون انه ينبغي أن يشعر بالخجل لانه سكران الى درجة أنه يرتجف بهذه الصورة • ورد ريمون قائلاً : لست سكرانا •• يا سيدي الشرطي •• كل ما في الامر انني هنا •• أمامك ، وأنا أرتجف على الرغم مني • ثم أغلق الباب وانصرف جميع الناس وانتهت أنا وماري من اعداد الطعام • ولكنها لم

تكن جائعة ، وقد آكلت أنا وحدي معظم الطعام • وانصرفت هي في الساعة الواحدة ونمت أنا قليلا •

في نحو الساعة الثالثة دق ريمون الباب ودخل • وظللت أنا راقدًا في الفراش وجلس هو على طرف السرير • وظل فترة صامتًا لا يتكلم ، ثم سألته عما فعل في موضوع الفتاة ، فقال لي انه فعل كل ما أراد أن يفعله ، وانه صفعها وبعد ذلك ضربها • أما باقي الحادث فقد شاهده بنفسي • وقلت له انه يبدو انها لقيت بذلك ما يكفي من العقاب واني ينبغي أن يكون راضيا • وقال ان هذا هو رأيه أيضا ، وأضاف انه على الرغم مما فعله الشرطي فان هذا لا يغير شيئًا من الضربات التي نزلت على جسدها • ثم قال انه يعرف جيدا رجال الشرطة ويعرف كيف يتصرف تجاههم • وسألني اذا كنت قد توقعت أن برد على صفعه الشرطي ؟ فقلت له اني لم اتوقع أي شيء واني من جهة أخرى لا أحب رجال الشرطة • وبدأت علامات الرضا على وجه ريمون • وسألني اذا كنت أريد أن أخرج معه ونهضت وبدأت أمشط شعري • ثم قال لي انه ينبغي أن أكون شاهدا معه • ولم يكن عندي نمة مانع ، ولكني لم أكن أعرف ما يجب أن أدوله • وقال لي ريمون انه يكفي أن أقول ان الفتاة أخطأت في حقه • وقبلت أن أكون شاهدا في قضيته •

وخرجت أنا وريمون ، وقدم لي نوعا من المشروبات الروحية اسمه « فين » (وهو يشبه العرق) ثم أراد أن يلعب معي بلياردو ، ولعبنا ، ولكنني لم أكن موفقا في اللعب • ثم أراد بعد ذلك أن نذهب الى « ماخور » ولكنني لم أقبل وقلت له انني لا أحب ذلك • وحينئذ عدنا الى المنزل ونحن نسير على مهل ، وقال لي في اثناء ذلك انه مغتبط جدا لانه استطاع أن يعاقب عشيقته • ووجدت ريمون لطيفا جدا معي ، وقد أمضيت معه في الواقع وقتا طيبا •

ولمحت من بعيد ، على باب المنزل ، سالامانو وكان يبدو عليه الاضطراب . ولما اقتربنا منه وجدت أن كلبه ليس معه . وكان يتطلع في كل اتجاه ، ويدور حول نفسه ، ويحاول أن يخترق بنظره ظلام الدهليز وهو يتمنم بكلمات كثيرة ، ثم يعاود البحث من جديد في الشارع. وهو يحملن بعينيه الصغيرتين الحمراوين . ولما سأله ريمون عما يشغله لم يجب على الفور . وسمعته يهمس في غموض : « يا قذر . . يا تنن » ، وظل قلما مضطربا . وسألته أين كلبه ؟ فأجاب فجأة انه مضى . ثم أردف بغتة وهو ينكلم بسرعة : « لقد اصطحبته الى ميدان ضرب النار كما هي العادة كل يوم ، وكان هناك كثير من الناس يتفرجون على السرك المتجول . ووقفت لكي أتفرج أنا أيضا على (ملك التخلص من المآزق) ولما أردت مواصلة السير ، لم أجد الكلب . لقد كنت حقيقة أريد منذ مدة طويلة أن أعرف كيف يمكن للكلب التنن ان يذهب هكذا » .

وفال له ريمون حينئذ : ان الكلب ربما ضل طريقه ، وانه لا بد أن يعود ، وذكر له عدة أمثلة عن كلاب سارت عدة كيلومترات لكي تعود الى صاحبها ، ومع ذلك فان العجوز كان يزداد اضطرابا . ولم يلبث أن قال : « ولكنهم سيأخذونه مني ، كما تعرفون . وربما التقطه شخص آخر . ولكن هذا غير ممكن ، فهو ينفر من جميع الناس على الرغم من ثورته . ان رجال الشرطة سيأخذونه بالتأكيد » . وحينئذ قلت له انه ينبغي عليه أن يتوجه الى جمعية الرفق بالحيوان (الشفخانة) حيث يستطيع استرداده بعد دفع بعض الرسوم . وسأل اذا كانت هذه الرسوم مرتفعة ؟ فقلت له اني لا أدري . وحينئذ صاح غاضبا : هل أدفع نقودا من أجل هذا التنن ؟ . آه ! . . من الافضل له أن يموت ! ثم بدأ يكيل له السباب . وضحك ريمون ودلف الى داخل المنزل ، وتبعته ، وافترقنا حين وصلنا الى الطابق الثالث . وبعد هنيهة ، سمعت خطوات الرجل

العجوز ثم دق على الباب • ولما فتحته ظل لحظة واقفا على عتبة الباب ثم قال : أستميحك عذرا •• أستميحك عذرا • ودعوته الى الدخول، ولكنه أبى • وأخذ ينظر الى طرف حذائه ، ويداه اللتان تغطيهما البشور ترتجفان • وسألني من غير أن ينظر الى وجهي : ألن يأخذوه مني ، قل الحق يا مسيو ميرسول •• هل سيعيدونه لي •• ماذا تصبح حياتي بدونهم ؟ فقلت له ان جمعية الرفق بالحيوانات تستبقي الكلاب مدة ثلاثة أيام تحت تصرف أصحابها ثم تفعل بها ما تشاء بعد ذلك • ونظر اليّ في صمت ، ثم قال : طاب مساؤك • وأغلق الباب وراءه • وسمعته يسير جيئة وذهابا • وسمعت سريره « يقطع » • وأدركت من الاصوات الغامضة التي عبرت الجدار الذي يفصل بينه وبينني ، أنه يبكي • ولا أعرف لماذا فكرت حينئذ في أمي • وخطر في ذهني أنه يجب أن أنهض مبكرا في الصباح • ولم أكن أشعر بأني جائع ، فنست من غير عشاء •

الفصل الخامس

كلمني ريمون بالتليفون وأنا في المكتب ، فقال لي ان أحد أصدقائه (وكان قد حدثه عني) يدعوني الى قضاء يوم الاحد في « الكابينة » التي يملكها على شاطئ البحر قرب الجزائر . وأجبت بأنه يسرني قبول هذه الدعوة ، ولكنني سبق أن وعدت صديقة لي بأن أمضي هذا اليوم معها . فقال ريمون على الفور بأنه يدعوها كذلك ، لان زوجة صديقه ستكون مسرورة جدا ، حينما تجد نفسها غير وحيدة في وسط مجموعة من الرجال .

وأردت أن أنهي المكالمة في الحال ، لاني أعلم أن رئيسي لا يجب أن يتحدث معنا أحد من المدينة . ولكن ريمون طلب مني أن أنتظر ، وقال لي انه قد يستطيع ابلاغني بهذه الدعوة في المساء ، ثم أردف قائلاً انه يريد أن يخبرني بشيء آخر ، وهو أن جماعة من الشبان العرب كانوا يتبعون خطاه طوال اليوم ، وكان من بينهم شقيق عشيقته القديمة . وطلب مني اذا رأيته قرب المنزل حينما أعود في المساء أن أبلغه بذلك . فطمأنته من هذه الناحية .

وبعد قليل استدعاني الرئيس ، فتضايقت ، لاني ظننت أنه سيطلب

مني الاقلال من الحديث في التليفون والاهتمام أكثر بالعمل . ولكن الامر كان غير ذلك بتاتا . فقد قال لي انه سيحدثني عن مشروع لا يزال موضوع بحث ، وأنه يريد أن يأخذ رأيي فيه . وقال انه ينوي انشاء مكتب في باريس يقوم بالاعمال هناك مباشرة مع الشركات الكبرى ، ويريد أن يعرف اذا كنت مستعدا للسفر الى هناك . وقال لي ان هذا سيتيح لي فرصة الاقامة في باريس والقيام برحلات في خلال جزء من السنة . وأضاف قائلا : انك شاب ، ويبدو لي ان هذه الحياة ستروق لك . فقلت له ان كلامه صحيح ولكن هذه المسألة في الواقع لا تهمني . وحينئذ سألتني عما اذا كنت غير راغب في تغيير حياتي . فقلت له ان الانسان لا يغير حياته مطلقا ، وأن جميع أنواع الحياة تتساوى على أية حال ، وان حياتي هما ليس فيها ما يدعوني الى الاستياء مها على الاطلاق . وبدا عليه عدم الرضا ، وقال لي أنني أجب دائما بطريقة تدل على رغبتني في التهرب ، واني شخص غير طموح ، وان هذا شيء ضار جدا في ميدان الاعمال . وعدت بعد ذلك لكي أستأنف عملي . وقد كنت أفضل ألا أغضبه ، ولكني لم أجد سببا يدعوني الى تغيير حياتي . وأنا حين أفكر في أحوالي جيدا لا أجد أنني تعيس أو بائس ولما كنت طالبا كان عندي كثير من الطموح من هذا النوع ، ولكن لما قدر لي أن أترك الدراسة أدركت بسرعة ان كل هذا لا ينطوي على أهمية حقيقية .

وفي المساء حضرت ماري عندي وسألتني عما اذا كنت أريد أن أتزوجها . فقلت لها إن هذا شيء لا يهم واننا نستطيع أن نتزوج اذا شاءت . وأرادت أن تعرف ما اذا كنت أحبها . فقلت لها الاجابة نفسها التي سبق أن قلتها لها ذات مرة ، وان هذا شيء لا يهم واني على أية حال لا أحبها . فقالت لي : ولماذا تتزوجني اذن ؟ فقلت لها : ان هذا شيء لبس له أية أهمية وانها اذا أرادت فاننا نستطيع أن نتزوج ومن جهة أخرى فهي التي طلبت ذلك واني وافقت على تنفيذ رغبتها ارضاء لها . وحينئذ

قالت : ان الزواج مسألة خطيرة • فقلت لها : اني لا أعتقد ذلك • فسكنت لحظة ونظرت اليّ في صمت • ثم عادت تتكلم وقالت : انها تريد فقط أن تعرف ما اذا كنت أوافق على هذا الطالب لو كان قد جاء من امرأة أخرى أكون مرتبطا معها بالعلاقة نفسها • فقلت لها : بالطبع • فسألني عما اذا كانت هي تحبني ، فقلت لها اني لا أعرف شيئا عن هذه المسألة • وبعد لحظة صمت تمتمت قائلة اني غريب ، وانها بدون شك تحبني بسبب ذلك ، ولكن ربما يأتي يوم أنفر منها للأسباب نفسها • ولما لذت بالصمت ، اذ لم يكن لدي ما أضيفه ، أخذت ذراعي وهي تبتمس وقالت لي انها تريد أن تتزوجني • فقلت لها : انا سنفعل ذلك في أي وقت تشاء • وحدثتها حينئذ عن اقتراح رغبتي فقالت انها تود أن ترى باريس • فقلت لها اني عشت هناك فترة من الوقت • فسألني : كيف تكون ؟ فقلت لها : انها قدرة • وفيها حمام وأفنية قدرة والناس هناك جلدهم أبيض •

وبعد ذلك سرنا وعبرنا المدينة عن طريق شوارعها الكبيرة • كانت النساء جميلات وسألت ماري اذا كانت قد لاحظت ذلك ، فردت بالايجاب وقالت انها تفهمني • وظللنا فترة لا نتحدث ومع ذلك فقد كنت أريد أن تظل معي ، وقلت لها : انا نستطيع أن نتناول العشاء معا عند سيلست • فقالت : انها تريد ذلك حقا ولكنها لا تستطيع ، لان لديها عملا • وفي هذا الوقت كنا قد اقتربنا من منزلي وقلت لها : الى اللقاء ، ونظرت اليّ وقالت : ألا تريد أن تعرف العمل الذي يضطرنني الى تركك الآن ؟ وقد كنت حقيقة أريد أن أعرف ، ولكنني لم أفكر في ذلك ، ولعل هذا هو السبب في أنه كان يبدو على ملامحها انها تريد أن تؤنبنني • ولما أحست بأني اضطربت ضحكت مرة أخرى وتحركت بكل جسمها نحو لي لكي تمد اليّ فمها •

وتناولنا العشاء عند سيلست • وبينما أنا أتناول الطعام اذ دخلت

امراة صغيرة الجسم غريبة الشكل وسألتنني عما اذا كانت تستطيع أن تجلس الى مائدتي . وقلت بالطبع انها تستطيع ذلك . كانت حركاتها سريعة ولها عيانان براققان في وجه صغير في لون التفاح . وتخلصت من جاكنتها ، وجلست ، وبدأت تفحص بلهفة قائمة الطعام . ونادت سيلست وبدأت على الفور تطلب جميع الاصناف بصوت واضح ومتعجل في الوقت نفسه وفي انتظار وصول أطباق المشهيات ، تحسب لمن وجبة الطعام ، وأضافت اليها المنحة (البقشيش) ، وأخرجت من كيس صغير قيمة ما استدفعه بالضبط ووضعت النقود أمامها . وفي هذه اللحظة وضع أمامها طبق المشهيات فالتهمتها بسرعة . وفي انتظار الطبق التالي ، أخرجت من حقيبتها قلما أزرق ومجلة تحوي برامج الاذاعة في خلال الاسبوع ، وأخذت تضع بكل عناية علامة أمام كل برنامج . ولما كانت المجلة تضم نحو عشر صفحات ، فقد استمرت تؤدي هذا العمل بدقة في اثناء فترة تناول الطعام كلها . ثم نهضت ، والتقطت جاكنتها بالحركات نفسها المضبوطة المحدودة كأنها تمثال متحرك ، وخرجت . ولما لم يكن لدي عمل آخر أعمله ، فقد خرجت أنا أيضا وتبعتها بعض الوقت . ورأيتها تسير على حافة افريز الشارع بسرعة وثقة عجيبتين ، ومضت في طريقها من غير أي انحراف . ولم ألبث أن فقدت أثرها ، فاخفت عن نظري ، وعدت أدراجي . وكان الانطباع الذي تركته في نفسي انها فتاة غريبة الاطوار ، ولكنني سرعان ما نسيتها .

وأمام عتبة شقتي رأيت سالامانو العجوز ، ودعوته للدخول ، وأخبرني بأن كلبه قد ضاع لانه لم يجده في جمعية الرفق بالحيوان . وقد قال له الموظفون ان سيارة ربما تكون قد داسته . وسألهم اذا كان من الممكن التيقن من ذلك في أقسام الشرطة ، فقالوا له ان من الصعب معرفة ذلك لان مثل هذه الحوادث تقع في كل يوم . وقلت للعجوز

سالامانو انه يستطيع احضار كلب آخر ، ولكنه قال انه قد تعود على كلبه ، وكان على حق فيما قال .

كنت جالسا القرفصاء على فراشي في حين جلس سالامانو على مقعد أمام المنضدة في مواجهتي وقد وضع يديه على ركبتيه . وكان يمضغ أواخر العبارات تحت شاربه المائل للاصفرار . وقد ضايقتني قليلا ، ولكن لم يكن لدي ما أفعله ولم أكن أشعر بنعاس . ولما لم يكن لدي ما أقوله ، فقد أخذت أسأله عن كلبه ، فقال لي انه كان قد أحضره بعد وفاة زوجته . وقال انه تزوج في وقت متأخر . وفي شبابه كان يريد العمل في المسرح ، وفي خلال عمله في الجيش كان يمثل في الفرقة المسرحية العسكرية ، ولكنه أخيرا عمل في ورش السكة الحديد ، وهو لا يأسف على ذلك ، لانه يتقاضى الآن معاشا صغيرا . وهو لم يكن سعيدا مع زوجته ، ولكنه على أية حال كان قد تعود عليها . ولما ماتت شعر بوحدة مؤلمة ، فطلب من أحد زملائه في المصنع أن يحضر له كلبا ، فأحضر له ذلك الكلب الذي كان عنده ، وكان حينئذ صغيرا الى درجة أنه كان يطعمه « بالبرازة » . ولكن لما كان الكلب يعيش من العمر أقل مما يعيش الانسان ، فقد انتهى الامر بأن أصبح كل منهما عجوزا . ومضى سالامانو فقال : كان الكلب سيء الخلق ، وكنا بين حين وحين تتشاجر ونمسك بعضنا بعضا . ولكنه مع ذلك كان كلبا طيبا . وقلت له ان كلبه كان من فصيلة جيدة ، فبدأ على وجه سالامانو السرور . وأردف قائلا : انك لم تعرفه قبل مرضه . لقد كان أجمل ما فيه شعره . ومنذ أصابه هذا المرض الجلدي كان سالامانو يدهن جسمه كل مساء وصباح بالمرهم . ولكن مرضه الحقيقي ، في رأي سالامانو كان تقدم السن ، والكهولة ليس لها علاج .

وفي هذه اللحظة ثاءبت وقال لي العجوز انه سيذهب . فقلت له انه يستطيع البقاء ، واني متألم لما حدث لكلبه ، فشكرني . وقال لي ان أمي

كانت تحب كلبه كثيرا . ولما تحدث عنها قال « أمك المسكينة » . وأعرب عن اعتقاده في أنني لا بد أنني أشعر بالنعاسة منذ توفيت أمي ، ولكنني لم أعقب على كلامه ، ثم قال بسرعة ، وقد بدا عليه الكدر ، ان سكان الحي أساءوا في حكمهم عليّ ، لاني وضعت أمي في ملجأ ، ولكنه يعرفني جيدا ويعرف اني كنت أحب أمي كثيرا . فقلت له . . . ولا أعرف لماذا قلت هذا: اني أجهل حتى الآن انهم سيئون الحكم عليّ في هذا الصدد ، ولكن الملجأ كان يبدو في نظري شيئا طبيعيا ، اذ انه لم يكن معي من المال ما يكفي لكي أحفظ بأمي . وأردفت قائلا : لقد مضت فترة طويلة من الزمن لا تجد خلالها ما تقوله لي ، وانها كانت تضيق بوحدتها . فوافقني على رأيي ، وقال : ان الانسان يستطيع على الاقل في الملجأ أن يجد أصدقاء . ثم استأذن في الخروج ، فقد كان يريد أن ينام ، لقد تغيرت حياته الآن ولم يعد يعرف ما سوف يفعله . وفي استحياء ، ولاول مرة منذ عرفته ، مد لي يده ، وأحسست بالقشور التي في جلده . وابتسم قليلا وقال قبل أن يرحل : أومل ألا تنبح الكلاب في هذه الليلة ، لاني أتوهم دائما أن كلمي بينها .

الفصل السادس

اليوم هو الاحد ، وقد استيقظت بصعوبة ، وكان لا بد لما ري ان تنادينني وتهزني لكي أنهض ، ولم تتناول طعاما لاننا أردنا أن نذهب للاستحمام في وقت مبكر . كنت أشعر بخواء ويبيض الصداع ، وكان لسيجارتتي مذاق مر . وسخرت مني « ماري » قائلة : انه يبدو عليّ الحزن كما لو كنت في « جنازة » . وكانت ترتدي فستانا من التيل الابيض وقد عقصت شعرها ، وقلت لها انها جميلة ، فضحكت مسرورة .

وحين نزولنا طرقتنا على باب « ريمون » ، فقال انه سيلحق بنا . ولما وصلت الى الشارع صدمني نور النهار كأنه يصفعني ، وذلك بسبب ما كنت أشعر به من تعب وكذلك لاننا لم نكن قد فتحنا مصراع النافذة . وقفزت ماري من فرط الغبطة ولم تتردد في القول بأن الجو جميل . وأحسست بأنني أفضل حالا كما اني شعرت بالجوع . وقلت ذلك لما ري التي عرضت عليّ حقيبتها المصنوعة من الشمع والتي كانت قد وضعت فيها لباس البحر الخاص بكل منا ، وفوطة . ولم يكن أمامنا الا أن نتنظر وسمعنا ريمون يغلّق بابيه . ونزل الينا وقد ارتدى بنطلونا أزرق وقميصا أبيض له كمان قصيران . ولكنه كان يضع على رأسه أيضا قبعة من القش أثارت ضحك ماري ، وكان ساعدها في غاية البياض تحت الشعيرات

السوداء التي تغطيها ، وشعرت بشيء من الاشمزاز لهذا المنظر • وكان يصفرّ وهو مقبل علينا وقد بدا عليه الانشراح ، وقد حيّاني قائلاً : كيف حالك ، أيها العجوز ، وقال لماري وهو يحييها « يا آنسة » •

وأقول بهذه المناسبة : اني كنت قد ذهبت عشبة الامس مع ريمون الى قسم الشرطة حيث شهدت بأن صديقتيه قد « خاتته » • وقد أفرج عنه على أن يعاد استجوابه مرة أخرى ، أما شهادتي فلم يجر بشأنها تحقيق للتثبت من صحتها • وقد تكلمنا أمام الباب مع ريمون في هذا الموضوع ، ثم قررنا بعد ذلك أن نستقل الاوتوبيس • لم يكن « البلاج » بعيدا ، ولكننا فضلنا أن نذهب بالاوتوبيس لكي نصل بسرعة • وقال ريمون ان صديقه سيكون مسرورا اذا ذهبنا اليه مبكرين • ولما بدأنا نسير أوما ريمون اليّ فجأة وطلب مني أن أنظر الى الامام ، فرأيت جماعة من الشبان العرب يستندون بظهورهم الى حانوت لبيع الدخان • وكانوا يرمفوننا في صمت وكان يبدو عليهم أنهم غير مباليين بنا أو ملتفتين الينا؛ كما لو كنا أحجارا أو أشجارا ميتة • وقال ريمون ان الناني من اليسار هو غريمه ، وبدا عليه القلق • ولكنه أردف قائلاً ان المسألة تعتبر منتهية على أية حال • ولم نفهم ماري ما كنا نقوله وسألتنا عما هناك • فقلت لها ان هؤلاء الشبان العرب يريدون التشاجر مع ريمون ، فطلبت أن نرحل على الفور • واستعاد ريمون مرحة وضحك قائلاً : انه يجب أن نسرع •

وذهبنا الى موقف الاوتوبيس الذي كان بعيدا بعض الشيء وألح لي ريمون أن الشبان العرب لا يتبعوننا • فالتفت تجاههم فوجدتهم لا يزالون في مكانهم وهم يتظلمون في غير مبالاة أيضا الى المكان الذي غادرناه منذ قليل • وركبنا الاوتوبيس ، وبدأ ريمون ، الذي ظهرت عليه علامات الارتياح ، يلقي بدعاياته وفكاهاته الى ماري • وشعرت بأنها

وقعت في نفسه موقعا حسنا ولكنها لم ترد عليه مطلقا ، وان كانت بين حين وحين تنظر اليه وهي تضحك .

ونزلنا في أطراف مدينة الجزائر ، ولم يكن البلاج بعيدا عن موقف الاوتوبيس ولكن كان لا بد من اجتياز هضبة صغيرة تشرف على البحر وتنحدر نحو البلاج ، وكانت مغطاة بأحجار يميل لونها الى الاصفرار ، وبالنباتات البيضاء ، في حين كانت السماء لونها أزرق شديد الزرقة . ووجدت ماري تسلية في دفع الازهار وتوجيه ضربات اليها بحقيبتها المصنوعة من المشمع . وسرنا بين صفين من القيللات الصغيرة ذوات الحواجز الخضراء والبيضاء ، وكان بعضها يغطيها ، مع شرفاتها ، نبات العبل ، وكان البعض الآخر مكشوبا عاريا في وسط الاحجار . وقبل أن يصل المرء الى حافة الهضبة يستطيع أن يرى البحر الساكن ثم يرى الى ما هو أبعد قليلا شريطا ضخما من الارض ممتدا داخل البحر وينام بهدوء في المياه الصافية . وصعد الجو الساكن صوت ضجيج خفيف لمحرك ، وشاهدنا على بعد زورقا بخاريا يتقدم ، وهو لا يكاد يرى ، في البحر اللامع والتقطت ماري بعض الحصى المتعدد الالوان كأنه قوس قزح . ومن على منحدر الهضبة المتجه الى البحر رأينا بعض المستحمين .

كان صديق ريمون يسكن في كوخ صغير « كايينة » من الخشب في طرف البلاج . وكان المنزل يستند من الخلف الى بعض الصخور ، أما الاعمدة التي كان يرتكز عليها من الامام فقد كانت غارقة في الماء . وقدمنا ريمون الى صديقه ، وكان يدعى « ماسون » ، كان رجلا طويلا ، ضخيم الجسم ، عريض المنكبين ، وله زوجة صغيرة ممثلة الجسم ، ولطيفة وتتكلم بلهجة باريسية . وطلب منا على الفور أن « نأخذ راحتنا » وقال - ان لديه سمكا مقليا كان قد اصطاده بنفسه في الصباح . وقلت له : ان منزله جميل جدا ، فقال لي انه يمضي فيه أيام السبت والاحد وأيام

الاجازات • وأردف قائلاً : انني وزوجتي نشعر فيه بغاية السعادة • وقد كانت زوجته رقيقة حقا ، وأخذت تضحك مع ماري ، وكادت أحس لأول مرة بأنني على وشك أن أتزوج •

وكان ماسون يريد أن يستحم ، أما زوجته وريمون فلم يرغبوا في الحضور معنا • وخرجنا ثلاثتنا ، وألقت ماري بنفسها في الماء على الفور وانتظرت أنا و « ماسون » بعض الوقت • وكان هو يتكلم على مهل ، ولاحظت انه اعتاد ان يختم كل عبارة يقولها بهذه الجملة : « وأقول أيضا • • » حتى ولو لم يكن لديه معنى جديد يمكن أن يضيفه الى ما يقول • فمثلا قال عن ماري انها : مدهشة ، وأقول أيضا ، رائعة • ثم لم أعد التفت الى هذه « اللازمة » لاني كنت مشغولا بالاحساس الذي خامرني بأن الشمس أنعشتني • وبدأ الرمل يسخن تحت قدمي • وأخذت أوجل تحقيق رغبتني في النزول الى الماء ، ولكني أخيرا قلت لماسون : « هيا بنا » وغصت في الماء • أما هو فقد دخل في الماء على مهل وألقى بنفسه فيه بعد أن توغل مسافة غير قليلة • وسبح في الماء ، ولكن بطريقة سباحته لم تكن جيدة الى حد اني تركته وانضمت الى ماري • وكان الماء باردا وكنت مبتهجا بالسباحة • وابتعدت أنا وماري وكنا متفقين في حركاتنا وفي غبطتنا •

وفي عرض البحر أخذنا نسبح على ظهرنا ، وبدأت الشمس تجفف من على وجهي المتجه الى السماء آخر قطرات الماء التي كانت تنساب في فمي • ورأينا ماسون يعود الى الشاطئ لكي يتمدد تحت الشمس ، وكان يبدو من بعيد ضخمة الجثة • وأرادت ماري ان نسبح معا • وجلست خلفها لكي أمسكها من وسطها وأخذت تتقدم في الماء بقوة ذراعيها وأنا أساعدها بضرب الماء بقدمي • وكان ضرب الماء هكذا يحدث بعض الضوضاء وظللنا نسبح على هذا المنوال حتى أحسست بالتعب • وحينئذ

تركت ماري وعدت الى الشاطئ وأنا أسبح بانتظام وأتنفس جيدا . ولما وصلت الى الشاطئ تمددت على بطني بجانب ماسون ووضعت وجهي في الرمل وقلت له اني مستريح هكذا ، ووافقني ، وجاءت ماري ، واعتدلت لكي أنظر اليها وهي مقبلة . كان جسدها يغمسه الماء الملح وقد ألتت بشعرها وراء رأسها ، وتمددت الى جانبي ، ملتصقة بي ، وأشاعت الحرارة المنبعثة من جسدها ومن الشمس النوم في عيني .

وهزنتني ماري وقالت لي ان ماسون قد عاد أدراجه الى المنزل ، وان الوقت قد حان لتناول الغداء . ونهضت على الفور لاني كنت جائعا ، ولكن ماري قالت لي : اني لم أقبلها منذ الصباح . وكل ما قالته صحيحا مع اني كنت أرغب في تقيلها . وقالت لي : هيا الى الماء . وجرينا وألقينا بجسدنا بين الامواج وظللنا نسبح قليلا ثم التصقت بي ، وشعرت بساقيها بين ساقي .

ولما عدنا الى الكوخ وجدنا أن ماسون سبق أن نادانا . وقلت له اني جائع للغاية ، وقال لزوجته على الفور : انه مسرور مني جدا . كان الخبز جيدا ، والتهمت نصيبي من السمك . وقدم الينا بعد ذلك لحم وبطاطس مطبوخ في الزيت . وأخذنا نأكل من غير أن نتكلم ، وكان ماسون يشرب نبيذا بين حين ويقدم لي منه باستمرار . وفي أثناء تناول القهوة شعرت بثقل في رأسي ودخنت كثيرا . واتفقنا — ماسون وريمون وأنا على أن نمضي معا شهر أغسطس على البلاج ، وان نشترك في النفقات وقالت لنا ماري فجأة : أتعرفون كم الساعة الآن ؟ انها الحادية عشرة والنصف ، ودهشنا جميعا ، ولكن ماسون قال اننا أكلنا مبكرين جدا ، وقال ان هذا شيء طبيعي ، لان وقت تناول الطعام هو الوقت الذي يجوع فيه المرء . ولا أعرف لماذا أضحك هذا القول ماري وأظن انها شربت اكثر مما ينبغي . وسألني ماسون اذا كنت أريد أن أنتزعه على الشاطئ

معه ، وأردف قائلاً : ان زوجتي تحب دائما أن تغفو بعد الغذاء ، أما أنا فلا أحب ذلك ، وأفضل أن أتمشى . وأنا أقول لها دائما ان هذا أفضل للصحة . ولكن من حقها على أية حال ، أن تفعل ما تشاء . وقالت ماري انها ستظل في المنزل لكي تساعد مدام ماسون في غسل الاطباق . وقالت الباريسية الصغيرة (مدام ماسون) انه ينبغي لذلك أن يذهب الرجال الى الخارج . ونزلنا نحن الثلاثة - ماسون وريمون وأنا - .

كانت أشعة الشمس تسقط في اتجاه رأسي على الرمال ، وكان بريقها لا يكاد يحتمل . ولم يعد هناك أحد قط على البلاج . وداخل « الكبان » التي تحاذي الهضبة والتي تطل على البحر كان يسمع ضجيج الاطباق وأدوات المائدة . ومن الأرض المغطاة بالصخور كانت تتصاعد حرارة تجعل المرء يتنفس بصعوبة . وكان ريمون وماسون يتحدثان عن أشياء وأشخاص لا أعرفهم ، وفهمت أنهما يعرفان بعضهما بعضا منذ مدة طويلة بل انهما عاشا معا في وقت ما . واتجهنا نحو الماء وأخذنا نسير في محاذاة البحر ، وبين فينة وأخرى كانت موجة صغيرة أطول من غيرها تقفز التبلل أحذيتنا المصنوعة من القماش . ولم أكن أفكر في شيء لاني كنت نصف نائم بسبب هذه الشمس المسلطة فوق رأسي العاري .

وفي هذه اللحظة قال ريمون لماسون شيئا لم أسمعه جيدا . ولكنني المحت في الوقت نفسه آخر البلاج ، وبعيدا جدا عنا ، اثنين من الشبان العرب قادمين في اتجاهنا . ونظرت الى ريمون الذي قال لي « انه هو » وواصلنا السير . وسأل ماسون كيف استطاعا أن يتبعانا الى هنا . وفكرت في أنهما لا بد قد رأيانا نستقل الاوتوبيس ومعنا حقيبة البلاج ، ولكنني لم أقل شيئا .

وأخذ الشبان يتقدمان نحونا ببطء واقتريا منا كثيرا . ولم نغير

نحن اتجاهاً ولكن ريمون قال : « اذا حدثت مشاجرة فلتأخذ يا ماسون الثاني • وأنا سأتكفل بغريمي وأنت يا ميرسول ، اذا وصل شخص ثالث ، فسيكون من نصيبك » فقلت له « وهو كذلك » ووضع ماسون يديه في جيوبه • وكان الرمل من فرط سخوته يبدو لي الآن أحمر اللون • وأخذنا نتقدم بخطى منتظمة نحو الشابين ، والمسافة بيننا تتناقص باستمرار • ولما أصبحنا على مسافة عدة خطوات منهما ، توقفا • وبطأنا أبا وماسون السير ، في حين اندفع ريمون مباشرة نحو غريمه • ولم أسمع جيداً ما قاله له ، ولكن الشاب تظاهر بأنه سيضربه برأسه • ووجه له ريمون حينئذ الضربة الأولى ، ثم لم يلبث أن نادى ماسون الذي اتجه الى الشخص الذي عينه له ووجه له لكمتين بكل قوته ، فهوى الشاب في الماء ووجهه الى الارض ، وظل هكذا عدة ثوان ، وفقاقيع الهواء تتصاعد الى السطح حول رأسه • وفي خلال هذا الوقت كان ريمون يضرب أيضاً ، وغطى الدم وجه غريمه • ولم يلبث ريمون أن التفت نحوي وقال : ستري ما سوف أفعل به ، ولكنني صرخت فيه قائلاً : خذ حذرک ، ان معه سكيناً ! ولكنه كان قد تلقى طعنة فتحت ذراعه وأخرى جرحت فمه •

ووثب ماسون الى الامام ، ولكن الشاب الراقد كان قد نهض ووقف خلف زميله المسلح • ولم نجرؤ على التحرك • وأخذنا يتراجعان ببطء ، من غير أن يتوقفا عن النظر الينا وارغامنا على احترام المدينة • ولما أيقنا انهما أصبحا على بعد كاف ، ركنا الى الفرار بسرعة شديدة ، في حين تسمرنا نحن تحت الشمس وقد أمسك ريمون بذراعه التي يقطر منها الدم ، ضاغطاً عليها بيده •

وقال ماسون على الفور انه يوجد طبيب يمضي دائماً يوم الاحد على الهضبة • وأراد ريمون أن يذهب اليه في التو واللحظة • ولكنه كلما أراد أن يتكلم أحدثت الدماء المتساقطة فقاقيع في فمه • وسندته أنا وماسون

وعدنا به الى الكابينة بأسرع ما يمكن ، وهناك قال ريمون ان جروحه سطحية وانه يستطيع الذهاب للطبيب . وذهب هو وماسون ، وبقيت أنا لكي أقص على المرأتين ما حدث . وقد بكت مدام ماسون وشحب وجه ماري شحوبا شديدا . وقد أزعجني هذا وعاقني عن الشرح . وانتهى الامر بأن لزمت الصمت وأخذت أدخن وأنا أتطلع الى البحر .

وفي نحو الساعة الواحدة والنصف ، عاد ريمون مع ماسون ، وعلى ذراعه رباط وعلى ركن فمه ضمادة لاصقة . وقد قال له الطبيب : ان جراحه بسيطة ، ولكن ريمون كان شديد الاكتئاب . وحاول ماسون أن يضحكه ، ولكنه لم يتكلم . ولما طلب ان ينزل الى البلاج سألته أين يريد أن يذهب ؟ وقلنا ، ماسون وأنا ، اننا سنرافقه . وحينئذ استولى عليه الغضب وبدأ يشتتمنا . وقال ماسون انه لا داعي لمعارضة رغبته في أن يخرج وحده . وعلى الرغم من هذا فقد تبعته .

وظللنا نسير على البلاج فترة طويلة . وكانت الشمس قاسية ، وكانت أشعتها الملتهبة تنكسر على الرمال وعلى البحر . وكان يساورني احساس بأن ريمون يعترف أين هو ذاهب ، ولكنني كنت مخطئا . وفي نهاية البلاج وصلنا أخيرا الى نبع صغير يسيل في الرمل ، خلف صخرة كبيرة . وهناك وجدنا الشابين العربيين راقدين على الارض ، وهما يرتديان حلة العمل الزرقاء الملوثة بالشحم (العفريته) . وكان يبدو علي كليهما الهدوء بل علامات الرضا أيضا ، ولم يغير حضورنا شيئا فالشاب الذي ضرب ريمون ظل ينظر اليه من غير أن يقول شيئا ، أما الآخر فكان ينفخ في قطعة صغيرة من الغاب ويواصل الزمر من غير توقف ، وهو يرمقنا بطرف عينه .

وفي خلال كل هذا الوقت ، لم يكن هناك سوى الشمس وهذا

السكون ، والضوضاء الخافتة التي يحدثها النبع ، ونغمات المزمار ذات المقاطع الثلاث . ووضع ريمون يده في جيبه الذي يوجد به المسدس ، ولكن غريمه لم يتحرك ، وانما أخذ هو وزميله ينظران الى بعضهما ، ولاحظت ان أصابع قدمي الشاب الذي ينفخ في المزمار متباعدة جدا عن بعضهما بعضا . وسألني ريمون من غير أن تغادر عيناه خصمه : هل أقتله؟ وخشيت اذا عارضته أن أثير ثأرته فيطلق النار ، واكتفيت بأن قلت له : ان الشاب لم يتكلم معك حتى الآن ، ولهذا فانه ليس من الرجولة أن تطلق النار عليه هكذا . وظللت أسمع ضجيج المياه الخافت وصوت المزمار في وسط هذا السكون المشبع بالحرارة . وقال لي ريمون : وهو كذلك . وأردفت قائلا : ولكن اذا لم يخرج مديته ، فليس من حقا أن تطلق النار . وبدأ ريمون يثور بعض الشيء وتبدو عليه امارات الاستفزاز ، في حين ظل الشاب العربي يواصل النفخ في المزمار ويراقب هو وزميله كل حركة يفوم بها ريمون . ولم ألبث ان قلت لريمون : كلا . . اذا كنت تريد أن تتشاجر فصارعه مصارعة رجل لرجل ، وأعطني مسدسك . فاذا تدخل زميله . . أ واستخدم مديته . . فسأطلق عليه النار .

ولما أعطاني ريمون مسدسه ، كانت الشمس تنزلق في كبد السماء رويدا رويدا ، ومع هذا فقد ظللنا واقفين بلا حراك ، كما لو كان قد أقيم حولنا سد يمنعنا من الحركة . وظللنا ننظر الى بعضنا بعضا من غير أن نخفض أعيننا ، وأصبح العالم الذي نعيش فيه في تلك اللحظة محصورا بين البحر والرمل والشمس ، وصوت المزمار والماء الخافت . . وراودني حينئذ احساس بأنه من الممكن اطلاق النار ، كما انه من الممكن عدم اطلاقه . فكل شيء أصبح معلقا بخيط رفيع . ولكن فجأة بدأ الشابان يتراجعا واختفيا خلف الشجرة ، فانسجبت أنا وريمون ، وعدنا أدراجنا . وبدأ على ريمون أنه أحسن حالا وأخذ يتحدث عن الاوتوبيس الذي سنعود فيه .

ورافقته حتى الكابينة ، وبينما كان هو يصعد الدرج الخشبي ، ظلت واقفا أسفل السلم ورأسي يطن من حرارة الشمس ، وأحجمت عن الصعود تكاسلا من بذل الجهد ، ومن مواجهة المرأتين مرة أخرى . ولكن الحرارة كانت مؤلمة الى درجة انه كان من المستحيل معها أن أظل بلا حراك تحت أشعة الشمس المتساقطة كالمطر من السماء . وفكرت : هل أظل واقفا هكذا أو أخرج ؟ وبعد لحظة عدت نحو البلاج وبدأت أمشي .

نفس وهج الحرارة الاحمر . وكان البحر يلهث على الرمل بأمواجه الصغيرة في أنفاس سريعة . . . مكتومة عندما أخذت أسير ببطء نحو الصخور ، وشعرت بجبهتي تتورم تحت الشمس . وخيّل اليّ ان كل هذه الحرارة تنكئ عليّ وتعرض طريقي . وكنت كلما ازداد لفتح الحرارة قسوة أصر أسناني وأحكم اغلاق قبضتي في جيبي بنظروني . وشدت جسمي كله لكي أتصر على الشمس وعلى الدوار الشديد الذي تصبه فوق رأسي . وحين تنبثق كل لمعة ضوء من الرمل كأنها السيف ، أو حينما أشاهد أصدافا بيضاء أو بقايا زجاجة مهشمة ، كانت عظام فكي تتقلص . وظللت أسير فترة طويلة على هذا الحال .

ورأيت من بعيد كتلة الصخر الصغيرة القاتمة وقد أحاطت بها هالة تغشى البصر من الضوء وغبار البحر . وفكرت في النبع المنعش الذي يقع خلف الصخرة ، وشعرت بالشوق للانصات الى خرير مائه والهرب من الشمس ، ومن التعب ، ومن بكاء النساء ، والشوق أيضا الى الظل وما يبعثه في النفس من راحة . ولكني . . . لما اقتربت منه . . . رأيت أن غريم ريمون قد عاد . . .

ولما رأني نهض قليلا ووضع يده في جيبه . أما أنا فكان من الطبيعي حينئذ أن أقبض على مسدس ريمون الموجود في جيبي . ثم زحف الى

الخلف من غير أن يسحب يده من جيبه • وكنت بعيدا عنه بنحو عشرة أمتار ، ولمحته يرمقني من خلال جفونه نصف المفتوحة • ولكن خياله ظل يتراقص أغلب الوقت أمام عيني ، في هذا الجو الملتهب ، وكانت ضوضاء الامواج قد أصبحت أكثر تكاسلا وخفوتا عنها في الظهر ، ولكن وهج الشمس والضوء على الرمل أمامي لم يتغير ، بل ظل كما هو • لقد مضت ساعتان لم يتقدم خلالهما النهار خطوة واحدة ، كما لو كان سفينة ألفت مراسيها في وسط محيط من المعدن الملتهب ، وعند الافق مرت باخرة صغيرة ، وقد لمحتها ، أو على الاصح لمحت بقعة سوداء - بطرف عيني • • لاني لم أتوقف عن النظر الى الشاب •

وفكرت في انه ليس عليّ الا أن أدور نصف دورة ثم أمضي في سبيلي وينتهي الامر ، ولكن البلاج الذي ينضح بحرارة الشمس خلفي جعلني أحجم عن العودة • فتقدمت عدة خطوات الى الامام نحو النبع • • ولم يتحرك الشاب • ولكنه على أية حال ، كان • • حتى ذلك الوقت • • بعيدا عني بعض الشيء • وربما بسبب الظلال التي على وجهه كان يبدو كما لو كان يضحك • • وانتظرت ، وانتقل لهيب الشمس الى وجنتي ، وشعرت بقطرات العرق تتجمع عند أهداب عيني ، انها الشمس نفسها التي قاسيت منها يوم وفاة أمي ، واني لأشعر الآن ، كما شعرت يومئذ ، بصداع في جبهتي وبشرايينها تدق معا تحت الجلد • وبسبب لفح الحر الذي لم أعد أطيعه تقدمت خطوة الى الامام • كنت أعرف أنها حركة حمقاء واني لن أتخلص من الشمس بالتحرك خطوة واحدة • ولكنني تقدمت خطوة • • خطوة واحدة الى الامام ، وفي هذه المرة ، سحب الشاب العربي مديته من غير أن ينهض ولوح لي بها في الشمس • انفجر الضوء على الصلب الذي بدا كسلاح طويل براق ، خيل لي أنه أصابني في جبهتي • وفي هذه اللحظة نفسها تجمع العرق على أهداب عيني وسال دفعة واحدة على جفوني وغطاها بستار دافئ كثيف • وعميت عيناي خلف هذا الستار المؤلف من

الدموع والملح ولم أعد أحس الا بدقات الشمس على جبھتي ، وفي الوقت نفسه •• بالسيف المنبثق من السكين المسلط امام وجهي • وكان هذا السيف الحارق يأكل أهدابي ويحفّر عيني الموجهتين • وأخذ كل شيء يترنح أمامي • وثقت البحر كتلة من الهواء سمیكة وحارة ، وبدا كما لو كانت السماء قد فتحت بكل طولها وعرضها لكي تمطر لهباء وتوتر كياني كله ، وتقلصت يدي على المسدس • واستجاب الزناد للضغط ، ولمست اصبعي بطن المسدس المصقول ، وارتفع صوت جاف وحاد في الوقت نفسه •• وبدأت معه المأساة وأزحت العرق والشمس • وفهمت أنني دمرت توازن اليوم ، والسكون الرائع للبلاج الذي كنت سعيدا فيه • وحينئذ أطلقت أربع رصاصات أخرى على الجسد المسجى الذي خمدت أنفاسه فنفذت فيه من غير أن يبدي حراكا • وكأنما كانت هذه الرصاصات أربع دقات قصيرة طرقت بها باب التعاسة والشؤم •

أبجد الشَّيْءِ

الفصل الأول

بعد القبض عليّ مباشرة ، استجوبت عدة مرات . ولكن المسألة كانت تتعلق بأسئلة للتحقق من شخصيتي ، ولم يستمر هذا طويلا . وقد أجري الاستجواب الاول في قسم الشرطة وكان يبدو كأن قضيتي لا تهم أحدا . وبعد ثمانية أيام حدث العكس ، اذ نظر اليّ قاضي التحقيق بفضول ، غير أنه سألني فقط عن اسمي ، وعنواني ، ومهنتي ، وتاريخ ولادتي . ثم أراد أن يعرف اذا كنت قد اخترت محاميا ؟ وأجبت بالنفي . وسألته عما اذا كان من الضروري اختيار محام . فقال لي : لماذا ؟ فقلت له اني أعتقد أن قضيتي بسيطة جدا . وابتسم قائلا : هذا مجرد رأي ، ولكن . . بقي رأي القانون . واذا لم تبادر أنت الى اختيار محام ، فإن المحكمة ستتدب محاميا من قبلها ، ورأيت أنه من الافضل جدا ان تتولى المحكمة الاضطلاع بمثل هذه التفاصيل . وقلت له ذلك . فوافق على رأيي وقال انه انما يطبق نص القانون .

وفي بداية الامر لم أحمل الموضوع على محمل الجده . وقد استقبلني قاضي التحقيق في حجرة تتدلى فيها الستائر ، وكان فوق مكتبه مصباح واحد يضيء المقعد الذي طلب مني الجلوس عليه ، في حين هو ذاته في

الظل • وكنت فيما مضى قد قرأت وصفا مماثلا اذلك ، في الكتب ، وبدا لي كل شيء كأنه مجرد لعب • ولكن بعد انتهاء محادثاتنا نظرت اليه فرأيت رجلا ذا ملامح رقيقة ، وعينين زرقاوين غائرتين ، وكان فارح الطول ، وله شارب طويل أشيب وشعر كثيف يكاد كله أن يكون أبيض ، وبدا لي أنه معقول جدا ، وعطوف •• بالرغم من بعض الحركات العصبية التي كانت تبدر منه • وحين خروجي كدت أن أمد له يدي ، ولكنني تذكرت في الوقت المناسب اني قتلت رجلا •

وفي اليوم التالي ، جاء محام لزيارتي في السجن • كان شابا صغير الجسم ممتلئا ، له شعر منسق بعناية • وبالرغم من حرارة الجو (وقد كنت أنا نفسي أرتدي قميصا بنصف كم) فانه كان يرتدي حلة قاتمة اللون • وكانت ياقة قميصه منشطة ، وتبدلى منها رباط عنق غريب الشكل به خطوط عريضة سوداء وبيضاء • ووضع على سريري حقيته التي كان يحملها تحت ذراعه ، وقدم لي نفسه ، وقال لي انه درس سجل قضيتي • وأضاف أن القضية دقيقة ، ولكنه لا يشك في النجاح اذا أوليته ثقتي • وشكرته ، وحينئذ قال لي : فلندخل الآن في الموضوع •

ثم جلس على سريري وأخبرني أنه أجريت تحريات عن حياتي الخاصة • وقد تبين منها أن أمي توفيت حديثا في أحد الملاجئ • وعلم المحققون ، من البحث الذي قاموا به في بلدة مارنوجو ، أنني أظهرت عدم مبالاة يوم دفنت أمي • وأردف قائلا : لعلك تدرك أنه يضايقني قليلا أن أطلب منك مساعدتي على ايضاح الامر • ولكن هذا مهم جدا • فهذا سيكون حجة قوية في يد الاتهام ••• اذا لم أجد شيئا أرد به • وسألني عما اذا كنت قد تأملت في هذا اليوم • وأدهشني كثيرا هذا السؤال ، وبدا لي اني أكون في غاية الحرج لو قدر لي أن ألقيه أنا • ومع ذلك فقد أجبته قائلا : اني فقدت قليلا عادة استجواب نفسي، وانه من الصعب أن أقدم اليه ما يريد من معلومات وقلت انسي كنت أحب أمي من غير

شك ، ولكن هذا لا يهم • وكل الاشخاص العاقلين يتمنون ، ان كثيرا أو قليلا ، موت هؤلاء الذين يحبونهم • وهنا قاطعني المحامي وبدا عليه اضطراب شديد • ووعدني بالألا يذكر هذا في الجلسة أو للقاضي المحقق • غير أنني أوضحت له أن من طبعي أن حاجاتي الجسمانية تمرقل كثيرا مشاعري • وفي اليوم الذي دفنت فيه أمي كنت متعبا جدا ، وكان النوم يسيطر عليّ ، الى درجة أنني لم أتنبه الى ما كان يحدث • والشيء الذي أستطيع أن أوّكده ، هو أنني كنت أفضل ألا تموت أمي • ولكن لم نبد على المحامي امارات الارتياح ، وقال لي : ان هذا غير كاف •

وفكر قليلا ثم سألني عما اذا كنت في هذا اليوم قد قهرت مشاعري الطبيعية • فقلت له : كلا، فهذا غير صحيح • وحينئذ رمقني بنظرة غريبة؛ كما لو كنت قد أثرت اشمئزازه • وقال لي بشيء من الخبت : ان مدير الملجأ وموظفيه ستسمع أقوالهم على أية حال باعتبار أنهم شهود وأن هذا قد يسيء الى موقعي أبلغ اساءة • فوجهت نظره الى أن هذه القصة ليس لها علاقة بقضيتي ، ولكنه أجاب فقط بأنه من الواضح أنه لم تكن لي علاقات مع العدالة •

وغادر الحجرة وقد بدا عليه الكدر • وكنت أود أن أستبقه لكي أقول له اني في حاجة الى عطفه ، ليس لكي يدافع عني بطريقة أفضل ، ولكن لان هذا شيء طبيعي • ولا سيما لاني وجدت أنني وضعتني في موقف حرج • انه لم يفهمني ولم يشأ أن يفعل ذلك بصورة كافية • وكانت لدي رغبة في أن أوّكد له اني مثل غيري من الناس •• بالتأكيد مثل غيري من الناس • ولكنني أدركت في قرارة نفسي أن كل هذا لن يجدي كثيرا ، وتخلت عن التفكير في ذلك بدافع الكسل •

وبعد قليل استدعيت مرة أخرى أمام قاضي التحقيق • كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وفي هذه المرة كان مكتبه يغمره الضوء الذي لم تستطع

الستائر المصنوعة من نسيج خفيف أن تمنعه من دخول الغرفة • كان الجو حارا جدا • وطلب مني الجلوس، ثم قال لي في كثير من الادب ان المحامي الخاص بي لم يستطع الحضور بسبب انشغاله بقضية أخرى • وأضاف أن من حقي ألا أجيب على أسئلته ، وأن أتتظر حضور المحامي لكي يشهد التحقيق وقلت : اني أستطيع أن أجيب وحدي • وحينئذ لمس باصبعه زرا على المنضدة ، فحضر كاتب وجلس ملاصقا لظهري •

وجلس كل منا على مقعد « فوتيه » مريح ، وبدأ الاستجواب • وقال لي أولا : ان الصورة التي رسمت عنني تشير الى أن من طبعي الصمت والانطواء ، وأنه يريد أن يعرف رأيي في هذا • فأجبت قائلا : ما دام ليس عندي شيء مهم أقوله ، فاني أفضل التزام الصمت ، وابتسم كما فعل أول مرة ، وقال : ان هذا هو عين العقل ، وأضاف قائلا : على كل حال ليس لهذا أي أهمية • وسكت ، ثم نظر اليّ ، وفجأة انتصب واقفا ليقول لي بسرعة : ان ما يهمني • • هو أنت • ولم أفهم جيدا ما يعنيه بذلك ، ولهذا فلم أجب بشيء • • ثم وأضاف قائلا : ان في تصرفاتك شيئا يتير حيرتي • وأنا واثق أنك ستساعدني على فهمها • وقلت له : ان الامر كله في غاية البساطة • وحثني على أن أروي له ما وقع في يوم الحادث ، فرويت له ما سبق ان شرحته له : ريمون ، البلاج ، الاستحمام، المشاجرة، ثم البلاج مرة أخرى ، النبع الصغير ، الشمس وطلقات المسدس الخمس • وكان يعقب على كل جملة بقوله : حسنا • • حسنا • ولما خلصت الى ذكر الجسد الممدد وافقني قائلا : حسنا • أما أنا فقد تمعت من تكرار القصة نفسها وبدا لي أنني لم أروها قط •

وبعد لحظة صمت وقف وقال لي انه يريد أن يساعدني ، وأنه مهتم بأمري ، وأنه بمساعدة الله سيفعل شيئا لأجلي ، ولكنه يريد أولا أن يوجه اليّ بعض أسئلة • ومن غير تمهيد سألني عما اذا كنت قد أحببت

أمي؟ فقلت له: نعم.. مثل كل الناس. ويسدو أن الكاتب الذي كان يسجل أقوالي بانتظام حتى الآن على الآلة الكاتبة قد أخطأ في لمساته لأنه اضطرب واضطر أن يعود الى الوراء. وحينئذ سألتني القاضي، من غير أن يكون في سؤاله منطق ظاهر: هل أطلقت الرصاصات الخمس دفعة واحدة؟ وفكرت قليلا ثم قلت: اني أطلقت رصاصة واحدة أولا، ثم بعد ثوان أطلقت الرصاصات الاربع الاخرى.. وسألني: لماذا انتظرت بين الطلقة الاولى والطلقة الثانية؟ وحينئذ أخذت أستعرض في ذهني مرة أخرى قصة البلاج الملتهب حرارة وأحسست بالشمس تفتح جبهتي. ولكنني في هذه المرة لم أجب على سؤاله. وفي خلال فترة الصمت التي أعقبت ذلك كان يبدو على القاضي الاتفعال. ثم جلس، وأخذ يعث بشعره، ووضع مرفقيه على المكتب ومال ناحيتي قليلا وقال وقد اكتسبت سحتته شكلا غريبا: لماذا.. لماذا أطلقت النار على جسد راقد على الارض؟ وهنا أيضا.. لم أعرف كيف أجب. ومسح القاضي جبهته بيديه وكرر سؤاله بصوت متغير قليلا: لماذا؟ يجب أن تقول لي السبب.. لماذا؟ ولكنني لزممت الصمت أيضا.

ونفض فجأة، وسار بخطوات واسعة نحو طرف الغرفة وفتح درجا في دُولاب السجلات وأخرج منه صليبا من الفضة عليه صورة المسيح أخذ يلوح به تجاهي. وصاح بصوت متغير ويكاد يكون مرتعشا: هل تعرف هذا؟ فقلت: نعم.. بالطبع. فقال لي بسرعة وبطريقة عاطفية انه يؤمن بالله، وانه يعتقد انه لا يوجد انسان، مهما تكن ذنوبه، لا يصفح عنه الله، ولكن لا بد لكي يتحقق ذلك، ان يؤكد الانسان ندمه بحيث يصبح كطفل صافي الروح، مستعد لاستقبال كل شيء، وكان مائلا بجسده على المنضدة وهو يحرك صليبه فوقي تقريبا. وأقول الحق.. فاني لم أتبه كثيرا للدلة والافكار التي ساقها، أولا لاني كنت أشعر بحر شديد، ثم لانه كان في مكتبه ذباب أكبر الحجم لا يفتأ يحط على

وجهي ، هذا فضلا على انه أثار بعض الخوف في نفسي • وأعترف في الوقت نفسه بأن الامر كان مضحكا لانه في نهاية المطاف كنت أنا المجرم وكان ينبغي أن أتابعه • وقد استمر في حديثه على أية حال • وفهمت الى حد ما أنه يرى أنه لا توجد سوى نقطة واحدة غامضة في اعترافي ، وهي واقعة انتظاري بعض الوقت بين اطلاق الرصاصة الاولى والرصاصة الثانية • وباقي الاعتراف كان لا غبار عليه ، أما النقطة المذكورة فانه لم يفهمها •

وكنت على وشك أن أقول له : انه مخطيء في عناده ، فان هذه النقطة الاخيرة ليست لها كل هذه الاهمية • ولكنه قاطعني وسألني لآخر مرة ، وقد انتصب واقفا على قدر ما يستطيع : هل تؤمن بالله ؟ فأجبت بالنفي • وحيثنذ جلس وقد استبد به الغضب • وقال لي : ان هذا مستحيل ، وان جميع الناس يؤمنون بالله ، حتى هؤلاء الذين يشيخون بوجوههم عنه • وأضاف قائلا : ان ايمانه بالله لا يتزعزع ، وانه لو كان يشك في ذلك لاصبحت حياته بلا معنى • وقال لي متعجبا : هل تريد أن تصبح حياتي بلا معنى ؟ • وكان من رأيي ان هذا شيء لا يهمني ، وقد أفصحت له عن ذلك • ولكنه مد يده ، عبر المنضدة ، ووضع المسيح تحت عيني ، وصاح بطريقة غير معقولة : أما أنا ، فاني مسيحي • واني لأطلب من هذا (يقصد المسيح) أن يغفر لك خطاياك • لماذا لا تستطيع أن تؤمن بأنه تعذب من أجلك ؟ • ولاحظت أنه يكلمني من غير تكلف ، ولكنني لم أعد أهتم بذلك كثيرا • وكانت حرارة الجو تزداد باطراد • وكعادتي ، حينما أريد التخلص من شخص أجد صعوبة في الاصغاء اليه ، تظاهرت بأني أوافق على ما يقول • وكم كانت دهشتي حينما أعلن انتصاره قائلا : هل رأيت ؟ هل رأيت ؟ ألا يعني هذا انك تؤمن به وأنتك ستفوض اليه أمرك ؟ • ولكنني ، بالطبع ، قلت له : كلا • • مرة أخرى • • فتهاوى فوق مقعده •

كان يبدو عليه أنه متعب جدا . وظل لحظة صامتا ، في الوقت الذي كانت فيه الآلة الكاتبة ، التي لم تتوقف قط عن متابعة الحديث ، تسجل العبارات الاخيرة . ثم نظر اليّ بامعان . . بشيء من الحزن، وتمتم قائلاً: انني لم أشاهد مطلقاً روحاً عنيدة مثل روحك . ان المجرمين الذين مثلوا أمامي كانوا سيكون دائماً أمام هذه الصورة التي تمثل الالم . وكنت على وشك أن أجب بأن هذا صحيح لانهم كانوا مجرمين . ولكنني تذكرت اني أنا أيضاً مثلهم . وكانت هذه فكرة لم أستطع الاعتراف بها . وحينئذ نهض القاضي كأنه يريد أن يعلن أن الاستجواب قد انتهى . ولكنه فقط سألني ، وقد بدا عليه الاجهاد : هل كنت نادماً على الذنب الذي ارتكبته؟ وفكرت قليلاً ثم قلت : اني لا أشعر بندم حقيقي وانما أشعر بالاحرى ببعض المضايقة . وخيّل لي أنه لم يفهم كلامي . ولكن الامر انتهى عند هذا الحد في ذلك اليوم .

وقد رأيت قاضي التحقيق كثيراً بعد ذلك . ولكنني كنت أذهب اليه برفقة المحامي في كل مرة . وكان الامر يقتصر على الاستفهام مني عن بعض النقاط فيما يتعلق بتصريحاتي السابقة ، او كان القاضي يناقش المحامي في بعض أوجه الاتهام . ولكنهما في الحقيقة لم يشغلا نفسيهما بي قط في هذه الاوقات . وشيئاً فشيئاً بدأت لهجة الاستجواب تتغير وأصبح واضحاً أن القاضي لم يعد يهتم بي ، وأنه انتهى من اتخاذ قرار بشأن قضيتي . ولم يعد يحدثني عن الله ، كما لم أعد أراه منفعلاً كما حدث في أول مرة . والنتيجة أن محادثاتنا أصبحت أكثر ودا ، وأصبح الامر مقصوراً على بعض الاسئلة ، ثم على قليل من المناقشة مع المحامي وانتهى الاستجواب . وأخذت قضيتي مجراها - حسب تعبير القاضي ذاته - وأحياناً . . حينما تكون المحادثات ذات صبغة عامة ، كانوا يزجون بي فيها . وبدأت أتنفس الصعداء . وفي هذه الساعات لم يعد أحد يعاملني بخبث . وأصبح كل شيء يسير سيراً طبيعياً ، منظماً ، متزناً ، الى حد أنه

بدأ يساورني هذا الاحساس المضحك وهو اني « أصبحت جزءا من العائلة » . وفي نهاية الاحد عشر شهرا التي استمر خلالها التحقيق ، أستطيع أن أقول : ان مما أثار دهشتي اني لم أستمتع بشيء قدر استمتاعي باللحظات النادرة التي كان القاضي يقودني فيها الى باب مكتبه وهو يربت على كتفي قائلا بلهجة ودية : هذا هو كل المطلوب اليوم أيها السيد غير المؤمن بالمسيح . وكنت أجد نفسي حينئذ بين يدي رجال الشرطة .

الفصل الثاني

هناك أشياء لم أكن أحب التحدث عنها قط . ولما دخلت السجن أيقنت . . بعد انقضاء عدة أيام . . أنني لن أتكلم عن هذا الجزء من حياتي .

وفيما بعد ، وجدت أن هذا النفور لا أهمية له وليس له مبرر . والواقع أنني لم أكن أحس بأني في السجن في خلال الايام الاولى ، لاني كنت أنتظر بشكل غامض حادثا جديدا . وقد بدأ كل شيء فقط عقب الزيارة الاولى والوحيدة لماري . ومنذ اليوم الذي تسلمت فيه خطابها ، والذي قالت فيه انه لا يسمح لها بالحضور لانها ليست زوجتي، أحسست في زناتي بأني في بيتي ، وأن حياتي قد توقفت . وفي اليوم الاول الذي قبض عليّ فيه ، حجزت أولا في حجرة كان يوجد فيها عدد من المقبوض عليهم ، ومعظمهم من العرب . وقد ضحكوا حينما رأوني ، ثم طلبوا مني أن أروي لهم ما فعلته فقلت لهم اني قتلت شابا عربيا ، فوجموا . ولكن بعد فترة من الوقت حل المساء، وشرحوا لي كيف أرتب الحصيد الذي سأرقد عليه (وعرفت أنني أستطيع أن أصنع وسادة بشكوير أحد طرفيه) وطوال الليل ، كان البق يجري علي وجهي . وبعد عدة

أيام ، عزلت في زنزانة حيث كنت أرقد على لوح من الخشب ، وكان فيها وعاء لقضاء الحاجة ، وطست من الحديد ، وكان السجن يطل على المدينة، واستطعت من نافذة صغيرة ، أن أرى البحر . وذات يوم كنت أمسك بالقضبان وأتجه بوجهي نحو الضوء حينما دخل أحد الحراس وقال لي ان هناك زائرة تريد أن تراني . وفكرت في أنها قد تكون ماري وكانت هي فعلا ...

ولكي أصل الى قاعة الاستقبال ، سرت في دهليز طويل ، ثم نزلت على درج ، ووصلت الى دهليز آخر ، ودخلت قاعة كبيرة جدا يدخل اليها الضوء من كوة واسعة . وكانت القاعة مقسمة الى ثلاثة أقسام بحاجزين كبيرين من القضبان الحديدية يقطعانها بالعرض . وبين الحاجزين كانت توجد مسافة طولها ثمانية أو عشرة أمتار تفصل بين الزائرين وبين المسجونين . ورأيت ماري قبالتني بفستانها المخطط ، ووجهها المائل للسمرة . وكان الى جانبي نحو عشرة من المسجونين، معظمهم من العرب . وكانت ماري محاطة أيضا بزوار من العرب ، وكان الى يمينها ويسارها سيدتان احدهما كهلة صغيرة الجسم لها شفتان ضيقتان وترتدي ملابس سوداء ، والاخرى امرأة سمينة يتدلى شعرها من فوق رأسها وتتكلم بصوت عال جدا مصحوب بحركات كثيرة .

ونظرا لبعدها المسافة التي تفصل بين الحاجزين ، اضطر الزوار ، والمسجونون الى التحدث بصوت مرتفع جدا . ولما دخلت أصبت بدوار من ضجيج الاصوات التي كانت تصطمم بالجدران العالية العارية للقاعة، ومن الضوء الحاد الذي كان يمر في زجاج النوافذ ويندفع داخل القاعة التي تعتبر « زنزاتي » بالنسبة لها . أكثر هدوءا وأقل ضوعا . وكان يلزمني بضع ثوان لكي أتأقلم مع هذا الجو الجديد . ومع ذلك فقد استطعت أخيرا أن أرى كل الوجوه بوضوح ... ولاحظت أن أحد

الحراس كان جالسا في نهاية الردهة بين الحاجزين • وكان معظم المسجونين العرب ، وكذلك أفراد أسرهم يجلسون القرفصاء وهم يواجهون بعضهم بعضا • وهؤلاء لم يكونوا يتصايحون • وبالرغم من الجلبة والضوضاء فانهم كانوا يستطيعون التفاهم بالتكلم بصوت خفيض جدا • وكان حديثهم الخافت المنبعث على مستوى منخفض يشكل نغما مستمرا لمحادثاتهم التي تتقاطع فوق رؤوسهم • كل هذا لاحظته بسرعة وأنا أتقدم نحو ماري • وابتسمت لي بكل قوتها وهي ملتصقة بالحاجز ، وقد وجدتها جميلة جدا : ولكنني لم أعرف كيف أقول لها ذلك •

وقالت لي بصوت مرتفع جدا : كيف الحال ؟ ••• انك تبدو في صحة طيبة ••• هل تحصل على كل ما تريد ؟ فقلت لها : نعم ••• أحصل على كل شيء •

وسكتنا ••• وكانت ماري تبتسم باستمراره وكانت المرأة السمينة تصيح وهي تكلم جاري ، وهو زوجها من غير شك ، وهو رجل طويل أشقر له نظرة صريحة •

وهاك مثلا للحديث الذي يدور بينهما :

صرخت المرأة من يافوخها قائلة :

لم تشأ جان أن تأخذه — فقال لها الرجل : نعم •• نعم ••

فعادت المرأة تصرخ : قلت لها انك ستسترده بعد خروجك ، ولكنها

لم تقبل أن تأخذه •

وصاحت ماري أن ريمون يبلغني تحياته ، فقلت لها : شكرا • ولكن صوتي غمره صوت جاري الذي كان يسأل زوجته عن صحتها • وقد ردت عليه وهي تضحك : انها لم تكن في أي يوم أحسن منها الآن • أما جاري الذي الى يساري فقد كان شابا صغيرا له يدان رقيقتان ، ولم يتكلم مطلقا ••• ولاحظت أنه يقف قبالة المرأة العجوز ، وانهما يتطلعان

الى بعضهما بعضا بشدة ، ولكن لم يكن لدي وقت لانظر اليهما اكثر من ذلك لان ماري صاحت قائلا : انه يجب أن أوْمَل خيرا ... فقلت لها : « نعم » وفي الوقت نفسه كنت أتطلع اليها وبي شوق شديد لان أضْم كنفها اليّ وهي ترتدي هذا الفستان ذا النسيج الرقيق ، ولا أعرف ماذا يمكن أن يؤْمَل الانسان خارجه . ولكن ماري أحسنت قولاً من غير شك حينما طلبت مني أن أوْمَل خيراً ، لانها كانت تبتسم دائماً . ولم أعد أرى سوى بريق أسنانها وثنيات عينيها الصغيره ... ثم صاحت من جديد :

ستخرج ... وستزوج ... وأجبت قائلاً :

هل تعتقدن ذلك ؟ لاني لم أجد شيئاً آخر أقوله وحينئذ قالت بسرعة بصوت مرتفع جداً : « نعم ... وسيفرج عنك ... وسنذهب للاستحمام مرة أخرى » . ولكن المرأة الاخرى صرخت وقالت انها تركت سلة لدى كاتب السجن ، وأخذت تعدد كل ما وضعته فيها ، وكان جاري وأمه يواصلان النظر الى بعضهما بعضاً . وظل حديث المسجونين العرب وزوارهم متصلاً .

وأحسست بأني شبه مريض ، وأردت أن أعود ، ولكنني كنت أريد أن أستمتع بوجود ماري . وحدثتني ماري عن عملها . وكانت تبتسم دائماً . وكانت القاعة تضج بالكلام والصراخ . وكانت جزيرة الهدوء الوحيدة تقوم الى جانبي ممثلة في الشاب الصغير وأمه العجوز . وبدأ الحراس يعيدون المسجونين الى الداخل ، واقتربت المرأة العجوز من القضبان ، وحينئذ أوْماً أحد الحراس الى ابنها فقال : « الى اللقاء يا أمي » ... وأدخل يده بين قضيبين لكي يوميء لها ايماءة بطيئة وطويلة .

وخرجت المرأة في حين دخل رجل آخر في يده قبعة واحتل مكانها . وأدخل في القاعة مسجون أخذ يتكلم مع الزائر بجرارة ، ولكن بصوت

غير مرتفع لان القاعة قد أصبحت هادئة • وجاء الحراس لكي يأخذوا جاري الذي الى يميني ، وقالت له زوجته دون أن تخفض صوتها •• كما لو كانت لم تلاحظ أنه لم يعد ثمة ضرورة للصراخ : خذ بالك من نفسك جيدا • ثم جاء دوري • وأومات اليّ ماري بحركة تعني أنها تقبلني •• وعدت مع الحارس قبل أن تمضي • كانت واقفة بلا حراك وقد ضغطت وجهها على الحاجز الحديدي وعلى شفيتها الابتسامة نفسها ، وقد انفرج فمها وتقلصت عضلاته •

وبعد وقت قليل على هذه الزيارة كتبت الى ماري خطابا ، ومنذ هذه اللحظة بدأت تحدث الاشياء التي لم أكن أحب أن أرويها قط ، وعلى أي حال فانه ينبغي عدم المبالغة في ذلك ، وقد كان الامر أسهل بالنسبة لي أكثر من غيري • ومن هذا •• فقد كان أشق شيء واجهته في بدابة اعتقالني ، هو أنه كان لدي أفكار انسان يتمتع بحريته •

فمثلا كنت أشعر برغبة شديدة في أن أذهب الى البلاج وأن أنزل في البحر • وحينما كنت أتخيل صوت الامواج الاولى وهي تداعب قدمي وجسدي يدخل في الماء ، وما يصاحب ذلك من شعور بالتححر والانطلاق ، كنت لا ألبت أن أفيق من أوهامي وأحس بجدران السجن تكاد تنطبق عليّ •• ولكن هذه التخيلات لم تستمر سوى بضعة شهور ، وبعدها صارت لي أفكار السجن ، أو أنتظر زيارة المحامي ، وتعلمت كيف أدبر قضاء بقية وقتي ، وأدركت أنه اذا قدر لي أن أعيش داخل جذع شجرة جافة من غير ان يكون ثمة أي شيء يشغلني سوى النظر الى السماء التي تعلقو رأسي فاني حتما كنت سأعود على ذلك بالتدريج ، ولا تنتظرت مرور الطيور والتقاء السحاب ، كما أنتظر هنا أربطة الرقبة الغريبة التي يرتديها المحامي ، وكما كنت أنتظر في زمن مضى يوم السبت من كل أسبوع لكي أقابل ماري وأعانقها •

ولكنني بعد أن فكرت مليا وجدت أنني لا أعيش في صحراء جرداء ،
وان هناك في العالم من هم أسوأ حالا مني . وكانت هذه هي فكرة أمي ،
وكانت دائما ترددها ، واتتهى الامر بأن أصبحت متعودا على كل شيء .

وكانت الشهور الاولى قاسية ، صعبة . ولكن الجهد الذي بذلته
ساعدني على اجتيازها . فمثلا كانت تعذيني الرغبة في المرأة . وكان هذا
شيئا طبيعيا . فأنا شاب . ولم أكن أفكر في ماري بالذات ، وانما كنت
أفكر في أية امرأة في كل النساء في كل أولئك اللاتي عرفتهن
في جميع الظروف التي أحببتهن فيها ، الى حد أن امتلأت زنزائتي بجميع
الوجوه وازدحمت برغباتي . وقد أدى ذلك الى اشاعة البلبلة في نفسي
الى حد ما ، ولكنه ساعدني من جهة أخرى على قتل الوقت، وقد اكتسبت
أخيرا عطف رئيس الحراس الذي يرافق ، في ساعة تقديم وجبات الطعام،
عامل المطبخ . وكان هو أول من كلمني عن النساء ، وقد قال لي ان هذه
هي أهم مشكلة تواجه غيري من المسجونين . وقلت له انني أعاني مثلهم ،
وان هذه المعاملة غير عادلة . فرد قائلا : لكنهم لهذا السبب بالضبط
وضعوك في السجن فقلت له ماذا يعني بعبارة : « لهذا السبب » فقال :
نعم . . . الحرية لقد حرموك من الحرية . ولم أكن قد فكرت من قبل في
هذه النقطة ، ووافقتة على قوله ، وقلت له : ان هذا صحيح ، والا فأين
يكون العقاب ؟ فقال نعم . . . انك تفهم الامور . . . ولكن الآخرين لا
يفهمون . . . غير أنهم في النهاية يحاولون التنفيس عما يشعرون به من
كبت بأية وسيلة . وغادرني رئيس الحراس بعد ذلك .

وكانت هناك أيضا مسألة السجائر . فحينما دخلت السجن أخذوا
مني حزامي وأربطة حذائي ، ورباط عنقي ، وكل ما كنت أحمله في
جيوبي ، وبخاصة السجائر . ولما وضعت في الزنزانة طلبت منهم أن
يردوها اليّ ، ولكنهم قالوا لي ان هذا ممنوع . وكانت الايام الاولى

بالغة القسوة ، ولعل هذا كان أشد ما أوجعني وآلمني • وكنت أمص قطع الخشب التي كنت أنتزعها من ألواح سريري ••• وكنت أشعر طوال النهار برائحة التبغ في خياشيمي • ولا أدري لماذا أحرم من شيء كهذا لا يسبب ضررا لاحد • وفهمت فيما بعد ان هذا أيضا جزء من العقاب • ولكن انتهى الامر بأن تعودت على عدم التدخين وأصبحت هذه العقوبة لا وجود لها ••

وباستثناء مثل هذه المضايقات لم أكن أشعر بتعاسة كبيرة •• وكانت كل المشكلة هي كيف أقتل الوقت • ولكن انتهى الامر بأن أصبحت لا أنضايق من أي شيء منذ تعلمت كيف أستعيد ذكرياتي • فكنت أحيانا مثلا أشرع في التفكير في غرفة منزلي ، وأتصور أنني أجول فيها من ركن الى ركن وأحصي في خيالي كل ما فيها من أشياء • وكنت أفعل هذا في بداية الامر بسرعة ثم أصبحت عمليات التذكر تستغرق بعد ذلك وقتا أطول • ذلك لاني كنت أستعيد في ذهني كل قطعة أثاث ، وكل شيء داخلها أو عليها ، وتفصيل هذه الأشياء بجميع وقائعها وألوانها • وانتهى الامر بعد بضعة أسابيع بأن أصبحت قادرا على احصاء كل ما في غرفتي •• وكلما أمعنت في تفكيري استطعت أن أخرج من ذاكرتي أشياء كنت قد نسيتها •• وأدركت حينئذ أنه اذا عاش رجل يوما واحدا في العالم الطليق، فانه بعد ذلك يستطيع أن يعيش في السجن ، من غير صعوبة ، مائة عام ، وأن يستعيد فيه من الذكريات ما يتيح له التغلب على مشاعر الضيق والتبرم ••• وهذا يعتبر ميزة الى حد ما •

وكانت هناك كذلك مشكلة النوم • وفي البداية كان النوم يفر من عيني بالليل ولم أكن أنام مطلقا في النهار • ولكن رويدا رويدا بدأت أنام أيضا بالنهار • وأستطيع أن أقول اني في خلال الشهور الاخيرة كنت أنام ست عشرة او ثماني عشرة ساعة في اليوم • ولم يكن يتبقى بعد ذلك

سوى ست ساعات كنت أمضيها في تناول الطعام وقضاء الحاجات الطبيعية
واستعادة ذكريات قصة تشيكوسلوفاكيا .

فما هي هذه القصة ؟

كنت قد عثرت بين المرتبة المصنوعة من القش ولوح الخشب الذي
على سريري ورقة قديمة من صحيفة تكاد تكون ملتصقة في القماش ،
وبلغ من قدمها أنها أصبحت صفراء اللون وشفافة . وكانت هذه الورقة
تحوي قصة ، ضاعت بدايتها ولكن يفهم أنها حدثت في تشيكوسلوفاكيا .
ومجمل هذه القصة أن رجلا رحل من قرية تشيكية سعيا وراء رزقه ولكي
يجمع ثروة ، وبعد خمسة وعشرين عاما عاد الى قريته مع زوجته وطفله
بعد أن أصبح غنيا واسع الثراء .

وكانت أمه تدير فندقا مع أخته في القرية . ولكي يفاجئها ترك
زوجته وطفله في فندق آخر وذهب الى أمه التي لم تتعرف عليه حينما
رأته . ومن قبيل الدعابة فكر في أن يستأجر غرفة عندها . وتبين لأمه
وأخته ، وكاتنا لم نعرفا حقيقته بعد ، أنه يحمل أموالا طائلة . فلما جن
الليل فاجأناه وقتلناه بمطرقة لكي تسرقا أمواله ، وألقنا بجثته في النهر .
وفي الصباح حضرت زوجته وكشفت لهما عن شخصية النزول ، من غير
أن تدري بما حدث له . فلم يكن من الام الا أن شنقت نفسها . أما أخته
فقد ألفت نفسها في بئر .

وقد قرأت هذه القصة آلاف المرات . فقد كانت تبدو لي ، من
ناحية ، غير محتملة الوقوع ، وكانت تظهر من ناحية أخرى طبيعية ، وعلى
أي حال فإن الرجل كان يستحق الى حد ما ما وقع له ، وكان ينبغي عليه
ألا يهزل في موقف جاد .

وهكذا كان الوقت يمر ، مع ساعات النوم ، والذكريات ، وقراءة هذه القصة ، وتبدل النور والظلام . وكنت قد قرأت أن المرء يفقد في السجن فكرة الزمن . ولكن هذا لم يكن له معنى مهم في نظري . ولم أكن أفهم الى أي حد يمكن أن تصبح الايام طويلة أو قصيرة في الوقت نفسه وقد كانت هذه الايام طويلة من غير شك . وبلغ من طولها انها أصبحت تفيض على بعضها بعضا وتتداخل . حتى انها فقدت أسماءها أيضا . وكانت كلمتا الامس والغد هما وحدهما اللذان لهما معنى في نظري .

ولما قال لي الحارس ذات يوم انه مضى عليّ في السجن خمسة شهور ، صدقته ، ولكن لم أفهمه . فقد كانت الايام في زنزاتي متشابهة وكان ما يحدث في أي يوم يحدث مثله في أي يوم آخر . . . وفي هذا اليوم ، بعد انصراف الحارس ، نظرت الى وجهي في السطل (القروانة) المصنوع من الحديد ، وبدا لي أن صورتي يبدو عليها الجذ على الرغم من أنني حاولت أن أتسم . وحركت القروانة أمامي وابتسمت ، ولكن صورتي ظلت عابسة حزينة . . . وانهت النهار وجاءت الساعة التي لا أريد أن أتكلم عنها ، الساعة التي ليس لها اسم ، حيث تتصاعد ضواء المساء من جميع أدوار السجن ، في موكب من الصمت . . . واقتربت من « المنور » وتطلعت مرة أخرى ، قبل أن يختفي آخر شعاع من الضوء ، الى وجهي . ووجدته لا يزال جادا ، عابسا . ولكن ماذا يثير الدهشة في ذلك ؟ . . .

ألم أكن أنا أيضا عابس النفس ؟ . . . ولكن في الوقت نفسه ولأول مرة منذ عدة شهور ، سمعت بوضوح رنين صوتي . . . وأدركت أنه يماثل ذلك الذي كان يرن منذ أيام طويلة في أذني ، وفهمت أنني طوال ذلك الوقت . . . كنت أكلم نفسي . . . وتذكرت حينئذ ما قالته المريضة يوم دفنت أمي : « . . . كلا . . . ليس هنا مخرج » وليس في استطاعة أي إنسان أن يتصور رهبة المساء في السجن .

الفصل الثالث

أستطيع أن أقول في واقع الامر ان الصيف حل بسرعة محل الصيف . وكنت أعرف انه مع مجيء لفحات الحرارة الاولى سيحدث شيء جديد لي . وكأنت قضيتي قد أدرجت في آخر دورة لمحكمة الجنایات . وكانت هذه الدورة تنتهي مع شهر يونيه . وقد افتتحت هذه المناقشات في الوقت الذي كانت الشمس فيه في أوج سطوعها في الخارج وأكد لي المحامي أن هذه المناقشات لن تستمر سوى يومين أو ثلاثة . ثم أردف قائلاً : ومن جهة أخرى فان المحكمة ستكون متعجلة ، لان قضيتك ليست أهم قضية في هذه الدورة . فهناك قضية قاتل لأبيه ستنظر بعدها مباشرة .

وفي الساعة السابعة والنصف صباحا جاء الحراس واقتادوني الى عربة السجن التي أوصلتني الى المحكمة . وأدخلني الحارسان اللذان كانا معي الى حجرة صغيرة ظليلة وجلسنا ننتظر بالقرب من باب تسمع من خلفه أصوات ونداءات وضوضاء مقاعد ونقل أثاث من مكان لآخر - وقد ذكرتني هذه الضجة بحفلات الحبي الراقصة ، حيث ترتب المقاعد بعد الغناء للرقص ، وقال لي الحارسان اننا ننتظر المحكمة . وقدم لي أحدهما سيجارة - ولكنني رفضتها . وسألني بعد قليل : هل أنت مضطرب ؟

فأجبت بالنفي وقلت ان مشاهدة قضية شيء ممتع على أي حال • والواقع اني لم أشهد ، طوال حياتي ، جلسة في المحاكم • وقال الثاني : نعم •• ولكن شهود الجلسات يثير التعب في النهاية •

وبعد قليل دوى صوت جرس في القاعة • وحينئذ نزع الحارسان الفيود الحديدية من يدي • وفتحا الباب • وأدخلاني في قفص المنهين وكانت القاعة مزدحمة بالناس وتكاد تنفجر بهم • وعلى الرغم من وجود الستائر على النوافذ فقد كانت أشعة الشمس تتسلل من بعض الاماكن • وكان الجو خائفا • وكان زجاج النوافذ مغلقا • وجلست وأحاط بي الحارسان • وفي هذه اللحظة شاهدت صفا من الوجوه أمامي • وكانت جسعها تتطلع اليّ وفهمت انهم المحلفون • ولكن لا أستطيع أن أقول ماذا يميز بعضهم عن بعض وكان الانطباع الوحيد الذي تركه هذا المنظر في نفسي انني أمام مقعد ترام وان جميع ركابه يرقبون الراكب الجديد لكي يستكشفوا ما يثير فيه الضحك والسخرية • واني أعرف جيدا ان هذه الفكرة بلهاء لان المحلفين لم يحضروا الى هنا لكي يروا ما يثير الضحك أو السخرية وانما جاؤا للبحث عن الجريمة • ولكن الفرق لم يكن كبيرا ، وعلى أي حال فقد كانت هذه هي الفكرة التي خطرت لي حينئذ •

ودهشت من كثرة عدد الناس في هذه القاعة المغلقة • ونظلت اليها مرة أخرى • ولكنني لم أستطع أن أعرف على أي وجه فيها • وفي بادئ الامر لم أتنبه الى أن كل هؤلاء الناس يتوقون الى رؤيتي • فلم أعود أن يهتم أحد بشخصي • وكان لا بد لي من بذل جهد لكي أدرك اني سبب كل هذا الهياج • وقلت للحارس يا له من زحام! •• فقال لي ان هذا كله بسبب الصحف ، وأشار لي الى جماعة يجلسون بالقرب من منضدة أسفل مقعد المحلفين • وقال لي : ها هم • وقلت له : من هؤلاء؟ فقال لي : انهم

الصحفيون • وكان يعرف أحد الصحفيين الذي رآه في هذه اللحظة فاتجه
إلينا • كان رجلا مسنا رقيقا له وجه عابس بعض الشيء • وصافح
الحارس بحرارة شديدة •• ولاحظت في هذا الوقت أن كل الناس يتكلمون
ويتجادبون أطراف الحديث ويقابل بعضهم بعضا ، كما يحدث في النادي
حينما يشعر المرء بالسرور لما يلتقي بأناس من بيئته نفسها • وخالجنى
احساس بأني شخص زائد على الحاجة وغير مرغوب فيه أو دخيل متطفل •
ومع ذلك فقد التفت الصحفي نحوي مبتسما وقال لي انه يأمل أن يسير
كل شيء على ما يرام بالنسبة لي • وشكرته ، ولكنه أردف قائلا :

لعلك تعرف أننا بالضنا بعض الشيء في نشر تفاصيل قضيتك • ولكن
هذا يرجع الى الصيف ••• فهو موسم ميت بالنسبة للصحف •• ولم
يكن هناك ما يستحق النشر سوى قضيتك وقضية قاتل أبيه • وعقب
ذلك أشار الى شخص بين الجماعة التي أتى منها ، وكان صغير الجسم
تبدو عليه الطيبة ويشبه عرسا سمينا ويضع على عينيه عوينات كبيرة يحيط
بهما السواد • وقال لي ان هذا هو المراسل الخاص لاحدى صحف
باريس • وأضاف قائلا : انه لم يحضر لأجلك على أي حال • ولكن نظرا
الى أنه مكلف بتغطية أبناء قضية قاتل أبيه ، فقد طلب منه أن يبعث في
الوقت نفسه بأبناء قضيتك • وهنا أيضا وجدت أنه يجب أن أشكره •
ولكنني فكرت ان هذا قد يبدو مضحكا •• ثم أشار لي بحركة ودية من
يده وغادرنا • وظللنا ننتظر بضع دقائق أخرى •

ووصل المحامي الخاص بي وهو يرتدي « الروب » ويحيط به كثير
من زملائه • واتجه نحو الصحفيين ، وصافحهم • لقد تبادلوا الفكاهات
وضحكوا ، وأمضوا وقتا طيبا ، الى أن دوى رنين الجرس في قاعة الجلسة •
وعاد الجمهور الى مكانه • وجاءني المحامي ، وصافحني ، ونصحني بأن
أجيب بإيجاز على الاسئلة التي توجه اليّ ، وألا أكون أنا البادىء في
الكلام ، وأن أعتمد عليه فيما يبقى بعد ذلك •

وسمعت الى يساري ضوضاء مقعد يسحب ، ورأيت رجلا طويلا رفيعا يرتدي زيا أحمر ، ويضع عوينات ، وجلس وهو يطوي ثيابه بعناية . وكان هذا هو المدعي العام .

وأعلن الحاجب وصول هيئة المحكمة ، وفي هذه اللحظة بدأت مروحتان كبيرتان تدوران وتترزان . ودخل ثلاثة قضاة ومعهم سجلات ، وكان اثنان منهم يرتديان ثيابا سوداء أما الثالث فكان يرتدي ثوبا أحمر، وساروا بسرعة نحو المنصة التي تشرف على القاعة . وجلس القاضي ذو الزي الاحمر على مقعد في الوسط ، ووضع قلنسوته أمامه . وجفف رأسه الصغير الاصلح بمنديل ، وأعلن افتتاح الجلسة .

وكان الصحفيون قد أمسكوا بأقلامهم في أيديهم ، وكان يبدو عليهم جميعا عدم المبالاة مع شيء من السخرية . ومع هذا فان أحدهم ، وهو أصغر منهم كثيرا في السن ، ويرتدي حلة من الصوف الرمادي ، ورباط عتق أزرق ، ترك قلمه وأخذ ينظر اليّ . ولم أر في وجهه غير المتناسق سوى عينيه الفاتحتي اللون جدا ، اللتين كاتتا تفحصاني بامعان من غير أن تعبيرا عن شيء محدد . وخالجني احساس بأني أنا الذي أنظر الى نفسي . ولعل هذا هو السبب — بالاضافة الى أنني لم أكن ملما بقواعد المكان — في أنني لم أفهم جيدا كل ما حدث بعد ذلك ، مثل عملية سحب القرعة الخاصة بالمحلفين، والاسئلة التي وجهها رئيس المحكمة الى المحامي، والى المدعي العام ، والى هيئة المحلفين (وبهذه المناسبة لاحظت أنه لدى كل سؤال كانت رؤوس المحلفين تتجه في وقت واحد نحو المحكمة) . والقراءة السريعة لقرار الاتهام الذي تضمن أسماء أشخاص وأمكنة أعرفها ، كما تضمن أسئلة جديدة موجهة الى المحامي الذي يتراجع عني .

ولكن رئيس المحكمة قال انه سينادي بالشهود . وبدأ الحاجب يقرأ

أسماء اسرعت انتباهي • ومن وسط هذا الجمهور الذي يتعذر التمييز بين أفراده ، رأيت أشخاصا أعرفهم ينهضون واحدا وراء الآخر ثم يختفون بعد ذلك من باب جانبي ، وكان هؤلاء هم مدير الملجأ ، وبواب الملجأ ، وتوماس بيريز العجوز ، وريسون ، وماسون ، وسالامانو ، وماري التي أوامت اليّ بحركة تنم عن القلق • وفي الوقت ، الذي استولت عليّ فيه الدهشة لاني لم أستطع أن ألمحهم من قبل ، اذا بالحاجب ينادي اسم الشاهد الاخير ، فنهض ، وهو « سيلست » ورأيت الى جانبه سيده المطعم الصغيرة الطيبة بجاكتها ووجهها الواضح القسما والذي ينم عن قوة الارادة • ولكن لم يكن لدي وقت للتفكير لان رئيس المحكمة شرع يتكلم • فقال ان المرافعة ستبدأ ، وانه يعرف أنه من غير المجدي أن يوصي الجمهور بالتزام الهدوء • وقال انه هنا لكي يدير المناقشات من غير انجياز وبروح موضوعية ، وان الحكم الذي ستصدره هيئة المحلفين سينطوي على روح العدالة • وأضاف قائلا انه على أي حال سيأمر باخلاء القاعة من الجمهور اذا وقع أقل حادث •

واشتد الحر في القاعة ، ورأيت الحاضرين يحركون الهواء أمام وجوههم بالصحف ، وقد ترتب على هذا ضجيج خافت مستمر • وأوما رئيس الجلسة للحاجب ، الذي أحضر على اثر ذلك ثلاث مراوح من القش الجدول استخدمها القضاة الثلاثة على الفور •

وبدأ استجوابي بعد ذلك بلحظات • وأخذ الرئيس يسألني بهدوء ، بل أيضا ، كما لاح لي ، بنوع من الود • ووجهت اليّ المحكمة أسئلة لتستوثق من شخصيتي ، ومع أنني تضايقت من ذلك الا اني وجدت أن هذا اجراء طبيعي جدا ، لانه من الخطورة بسان محاكمة شخص عن جريمة قد يكون ارتكبها شخص آخر • ثم شرع رئيس الجلسة يسرد تفاصيل الوقائع المنسوبة اليّ ، وكان يلتفت اليّ عقب كل ثلاث جمل

ليسألني : هل هذا صحيح ؟ وفي كل مرة كنت أجيب قائلاً : نعم ، يا سيدي الرئيس . وذلك طبقاً للتعليمات التي تلقيتها من المحامي . وقد استغرق هذا كله وقتاً طويلاً ، لأن الرئيس سرد التفاصيل بكل دقة .

وفي خلال كل هذا الوقت كان الصحفيون يكتبون . وأحسست بنظرات الصحفي وبنظرات صحفية صغيرة تبدو كأنها تمثال متحرك . وكان مقعد الترام (المحلفون) متجهاً كله الى ناحية الرئيس ، الذي كان يسعل ويقلب أوراق السجل ، ثم لم يلبث ان التفت اليّ وهو يحرك مروحته .

وقال لي انه لا بد الآن من تناول مسائل قد تبدو في الظاهر غريبة عن القضية ، ولكن ربما تكون لها صلة قوية بها . وفهمت أنه سيعود الى الكلام عن أمي وشعرت بأن هذا سيضايقني أشد مضايقة . وقد سألتني لماذا وضعت أمي في الملجأ . فأجبت بأنني فعلت ذلك لاني كنت أفقر الى المال اللازم لتوفير العناية بها . وسألني عما اذا كان هذا قد كلفني أنا نفسي بعض النفقات ، فأجبت بأنه لا أمي ولا أنا كنا ننتظر شيئاً من بعضنا البعض ، أو من أي شخص آخر ، وان كلانا قد تعود على حياته الجديدة .

وحيث أن الرئيس انه لا يريد أن يتمسك بهذه النقطة ، وسأل المدعي العام عما اذا كان يريد توجيه سؤال آخر اليّ .

وقد استدار هذا نحوي بظهره نصف دورة ، وقال ، من غير أن ينظر اليّ ، انه يريد أن يعرف ، بعد اذن الرئيس ، اذا كنت قد عدت وحدي الى النبع بقصد قتل الشاب العربي . فأجبت بالنفي . وحيث أن قال :

اذن لماذا كان المتهم (الذي هو أنا) مسلحاً ، ولماذا عاد الى هذا المكان بالذات ؟ فقلت ان هذا حدث بمحض المصادفة . فقال المدعي العام بلهجة مخنقة :

اني أكتفي الآن بهذا القدر من الاسئلة . وأعقب ذلك بعض الهرج والمرج ، بالنسبة لي أنا على الاقل . وبعد أن تداولت المحكمة أعلن الرئيس رفع الجلسة وتأجيلها الى ما بعد الظهر لسماع أقوال الشهود .

ولم يكن لدي وقت للتفكير . فقد قادني الحراس الى عربة السجن وذهبوا بي الى السجن حيث تناولت الطعام . وبعد فترة قصيرة جدا ، ولكنها كانت كافية لكي أحس بأني متعب ، جاء الحراس ليقتادوني مرة أخرى الى المحكمة وأعيدت القصة من جديد ، ووجدت نفسي في القاعة نفسها وأمام الوجوه نفسها أيضا والفرق الوحيد أن الحرارة كانت أشد . ولشدة عجبي رأيت كما لو كان ذلك قد حدث بمعجزة ، كل المحلفين ، والمدعي العام ، والمحامي ، وبعض الصحفيين يمسكون هم أيضا بمراوح من القش . وكان الصحفي الصغير والصحفية الشابة في القاعة أيضا . ولكن لم تكن معهما مراوح ، وانما ظلا يحملقان في وجهي من غير أن يقولوا شيئا .

وجففت العرق الذي كان يغطي وجهي ، ولم أتنبه قليلا الى ما يدور في الجلسة والى نفسي الا حينما سمعت الحاجب ينادي مدير الملجأ . وسئل عما اذا كانت أمي قد شكت مني ؟ فأجاب بالايجاب ، ولكنه قال ان من عادة نزلاء الملجأ الشكوى من أقاربهم . واستوضحه الرئيس اذا كانت قد أنحت عليّ باللوم لاني وضعتها في الملجأ ، فأجاب المدير بالايجاب . ولكنه في هذه المرة لم يصف الى كلامه شيئا . وزد على سؤال آخر بأنه دهش لهدوئي في يوم جنازة أمي . وسئل عما يعنيه بكلمة هدوء . فنظر المدير حينئذ الى طرف حذائه وقال اني لم أرغب في رؤية أمي ، واني لم أبك مرة واحدة ، واني رحلت فورا بعد أن تم الدفن من غير أن ألبث بعض الوقت عند قبرها . وقال شيئا آخر أثار دهشته ، وهو أن أحد الحانوتية قال له اني لم أكن أعرف سن أمي . ومرت لحظة

صمت سأله الرئيس بعدها عما اذا كان قد قصدني أنا بالذات بأقواله .
ولما بدا أن المدير لم يفهم السؤال قال له الرئيس :

« هذا هو القانون » ثم سأل المدعي العام عما اذا كان يريد أن
يستجوب الشاهد ، فصاح قائلاً : أوه .. كلا .. هذا يكفي . وقد قال
ذلك باعتداد وهو يوجه اليّ نظرة ظافرة ، الى حد أنني شعرت لأول مرة
منذ عدة سنوات برغبة حمقاء في البكاء لاني أحسست كم أنا مكروه من
كل هؤلاء الناس .

وبعد أن سأل الرئيس المحلفين والمحامي الخاص بي عما اذا كانوا
يريدون توجيه أسئلة اليّ ، استمع الى أقوال بواب الملجأ وأعيدت معه
— كما فعلت المحكمة مع جميع الآخرين — الاجراءات الرسمية نفسها ،
ولما وصل الى مقربة مني نظر اليّ ثم أشاح بعينيه عني . وأجاب على
الاسئلة التي وجهت اليه — وقال اني لم أشأ أن أرى أمي واني دخنت
سجائر . واني نمت — واني شربت قهوة ممزوجة باللبن . وتشعرت حينئذ
بأن شيئاً قد أثار القاعة كلها . وفهمت لأول مرة اني مذنب ، وطلب من
البواب أن يعيد سرد حكاية القهوة الممزوجة باللبن والسجائر . ونظر اليّ
المدعي العام وقد لمع في عينيه وميض ينم عن السخرية والتهمك . وفي هذه
اللحظة سأل المحامي ، الذي يترافع عني ، البواب عما اذا لم يكن قد
دخن معي . ولكن المدعي العام احتج بعنف على هذا السؤال وقال : من
هو المجرم هنا ؟ وما هي هذه الوسائل التي تهدف الى تلويث شهود
الاتهام بقصد الحط من قيمة شهادتهم الدامغة ؟ وعلى الرغم من كل شيء
فقد طلب رئيس الجلسة من البواب أن يجيب على سؤال المحامي فقال
وقد بدا عليه الاضطراب : انني أدرك جيداً اني كنت على خطأ ولكنني لم
أجرؤ على رفض السجارة التي قدمها لي هذا السيد . وأخيراً سئلت عما
اذا كان لدي شيء أريد أن أضيفه . فقلت : كلا .. لا يوجد شيء فقط

أريد أن أقول ان الشاهد على حق • فالحقيقة اني أنا الذي قدمت له
السيجارة •• وحينئذ نظر اليّ البواب بشيء من الدهشة وبنوع من
الامتنان •• وتردد قليلا ثم قال : انه هو الذي قدم لي القهوة المزوجه
باللبن : وصاح المحامي الذي يترافع عني وفي صوته نبرة من الشعور
بالظفر بأن على المحلفين أن يضعوا هذا الاعتراف موضع الاعتبار ، ولكن
المدعي العام أرسل صيحة مدوية من فوق رؤوسنا قائلا : نعم ••• ان
السادة المحلفين سيضعون هذا الكلام موضع الاعتبار • وسيدركون أن
أي شخص غريب يحق له أن يطلب قهوة •• ولكن أي ابن ينبغي عليه أن
يرفض احتساءها أمام جثة تلك التي منحتها الحياة • وعاد البواب الى
مقعده •••

ولما جاء دور توماس بيريز ، اضطر الحاجب أن يسنده حتى منصة
المحكمة • وقال بيريز انه كان يعرف أمي على وجه خاص • وانه لم يرني
سوى مرة واحدة ، في يوم الجنازة • وسئل عما فعلته في هذا اليوم
فأجاب : لعلكم تعلمون اني في هذا اليوم كنت في غاية الالم • ولهذا فلم
أر شيئا • فقد كان الالم الذي أحس به فظيعا — حتى انه أغمي عليّ •
ولهذا فاني لم أستطع أن أرى السيد • وسأله المدعي العام عما اذا كان
على الاقل لم يرني أبكي فأجاب بالنفي • فصاح المدعي العام بدوره :
أرجو أن يضع السادة المحلفون هذا موضع الاعتبار • وظهر الغضب على
وجه المحامي الذي يترافع عني • وسأل بيريز في لهجة بدت لي أنها تنطوي
على المبالغة اذا كان قد رأى اني لم أبك • فأجاب بيريز بالنفي ، وضحك
الجمهور ، وقال المحامي حينئذ بلهجة قاطعة ، وهو يرفع كم « الروب » :
ها أتم هؤلاء ترون صورة هذه القضية •• فكل شيء حقيقي ••• ولا
يوجد أي شيء حقيقي ! • وظل وجه المدعي العام متجهما وأخذ يعبث بقلمه
في السجلات •

وبعد خمس دقائق رفعت فيها الجلسة وقال لي حلالها لمحامى : ان كل شيء يسير على ما يرام . استمعت المحكمة الى سيلست بناء على طلب الدفاع . وكان الدفاع هو أنا . . . وكان سيلست ينظر ناحيتي بين حين وحين وهو يدير بين يديه قبعته المصنوعة من القش . وكان يرتدي الحاه الجديده الي كان يرتديها حينما يذهب معي في أيام الآحاد الى حفلات سباق الخيل . ولكنني أعتقد انه لم يسنطع أن يرتدي اليافه لانه كان يضع ففط زراراً من النحاس يشد طرفي رقبه قميصه المقل . وسئل هل كتب زبونا عنده فقال : « نعم . . . ولكنه كان أيضا صديقي » . . . وسئل عن رأيه فيّ ، فقال : اني كنت رجلا ، وسئل ماذا يعني بذلك فقال : ان كل الناس تعرف ما يعنيه بذلك . وسئل عما اذا كنت شخصا منطويا على نفسي . فقال : اني فقط لم أكن أتكلم في شيء لا يهم . وسأله المدعي العام هل كنت أدفع له ثمن الطعام بانتظام فضحك سيلست وقال : هذه مسائل خاصة بيننا . . . وسئل أيضا عن رأيه في الجريمة التي ارتكبتها . فوضع حينئذ يديه على الحاجز الذي يفصل بين الجمهور والمحكمة ، وأيقنت أنه قد أعد شيئا . ثم قال : بالنسبة لي . . . فانها مصيبة . وهي مصيبة يعرف كل الناس مداها . . . انها مصيبة تترك الانسان من غير دفاع . حسنا . . . انها مصيبة بالنسبة لي . . . وأراد أن يواصل كلامه . ولكن الرئيس قال له ان هذا يكفي . وانه يشكره . وظل سيلست مشدوها لحظة ، ولكنه لم يلبث أن قال انه يريد أن يتكلم . وحينئذ طلب منه أن يوجز فقال مرة أخرى ان هذه مصيبة . فقال له الرئيس : نعم، هذا مفهوم ولكننا موجودون هنا لنحكم على المصائب التي من هذا النوع . . . ونحن نشكرك . وحينئذ نظر سيلست نحوي . وبدا لي أن عينيه تلمعان وأن تنفثيه ترتجفان . وانه يريد أن يسألني عما اذا كان يستطيع أن يفعل شيئا آخر ولكنني لم أقل شيئا . ولم أقم بأية حركة . ولكنها كانت أول مرة في حياتي أشعر فيها بالرغبة في أن أعانق رجلا . وأمره الرئيس مره

أخرى بأن يعود الى مكانه • فرجع الى مقعده وجلس • وطوال الجزء الباقي من الجلسة ظل قابعا في مكانه وهو منحن قليلا الى الامام وساعده على ركبته ، والقبة المصنوعة من القش بين يديه ، ويستمع الى كل ما يقال •

ودخلت ماري وكانت تضع فوق رأسها قبعة • وكانت حتى ذلك الوقت جميلة ولكني كنت أحبها أكثر بشعرها المتهدل ، وكان يبدو عليها التوتر الشديد وفي الحال سئلت : منذ متى كانت تعرفني • فحددت التاريخ الذي كانت تعمل في خلاله في المكتب معي • وأراد الرئيس أن يعرف مدى علاقاتها معي ، فقالت انها كانت صديقتي ، وأجابت على سؤال آخر بأنها كانت تنوي فعلا الزواج بي • وسألها المدعي العام فجأة ، وهو يقبل في أوراق سجل : منذ (متى) ترجع علاقتنا فحددت التاريخ • فقال ، بعدم الاكتراث ، انه يبدو أن هذا كان غداة وفاة أمي ، ثم قال بشيء من السخرية انه لا يريد التمسك باثارة موقف دقيق • وانه يفهم جيدا مدى تأنيب ضميرها لها • ولكن (وهنا احتد صوته) واجبه يملئ عليه أن يرتفع فوق قواعد المجاملة • وحينئذ طلب من ماري أن تلخص ما حدث في اليوم الذي عرفتها فيه • ولكنها لم تشأ أن تتكلم ، ولكن أمام الحاح المدعي العام تكلمت عن واقعة ذهابنا للاستحمام في البحر ، وذهابنا الى السينما وعودتنا الى منزلي • وقال المدعي العام انه عقب أن أدلت ماري بأقوالها في التحقيق ، أطلع على برامج السينما في هذا التاريخ للثبوت من صحة أقوالها ، وأردف قائلاً : ان ماري ستقول بنفسها ما هو الفيلم الذي شاهده حينئذ • فقالت بصوت بريء كان فيلما لفرنانديل^(١) ولما انتهت من كلامها ساد القاعة صمت مطبق وحينئذ نهض المدعي العام وقد بدا عليه الجهد الشديد • وقال بصوت يغلب عليه التأثر وهو ينطق

(١) فرنانديل ممثل فرنسي هزلي مشهور (المترجم) •

الكلمات ببطء : « سادتي المحلفين ، غداة اليوم الذي ماتت فيه أمه ، ذهب هذا السيد للاستحمام . وبدأ علاقة غير مشروعة ، ذهب لكي يضحك أمام فيلم هزلي ، وليس لديّ ما أقوله أكثر من ذلك » . ثم جلس والصمت يسود المكان . ولكن فجأة بدأت ماري تنسج باكية وقالت ان الامر ليس بهذه الصورة وان هناك شيئاً آخر . وانها أرغمت على عكس ما كانت تريد أن تقول وانها تعرفني جيداً . واني لم أرتكب أي خطأ ، ولكن بايماءة من الرئيس، قادها الحاجب الى مكانها واستؤثفت الجلسة .

ولم يكذب يصغي أحد بعد ذلك الى ما قاله ماسون من أنني رجل شريف بل وحينما قال اني أيضا رجل طيب حسن الطوية . ولم يكن أحد يسمع أيضا الى سالامانو الذي قال اني كنت طيباً مع كلبه ، وحينما أجاب على سؤال عن أمي وعني قال : ان لم يكن لدي ما أقوله لها واني وضعتها لهذا السبب في الملجأ لكي أجنبها الشعور بالسأم والملل . وقد صاح سالامانو قائلاً : ينبغي أن تفهموني ينبغي أن تفهموني - ولكن لم يبد أن أحدا يريد أن يفهم ، وأعادوه الى مكانه .

وبعد ذلك جاء دور ريمون الذي كان الشاهد الاخير . وأوماً اليّ ريمون ايماءة صغيرة ، ثم قال على الفور اني بريء . ولكن رئيس الجلسة قال انه ليس مطلوباً منه اصدار أحكام ، ولكن المطلوب منه تقرير وقائع . وطلب منه أن ينتظر الاسئلة لكي يجيب . وسردت له المحكمة علاقته بالقتيل . فاتتهز ريمون هذه الفرصة لكي يقول : ان القتييل هو الذي كان يكرهه منذ أن صفع أخته . ومع ذلك فقد سأله الرئيس عما اذا كان القتييل لم تكن لديه أسباب تدعوه الى كراهيتي . فأجاب ريمون بأن وجودي في البلاج كان بمحض المصادفة ، وحينئذ سأله المدعي العام : كيف اذن حدث ان الخطاب الذي كان أصل المأساة كتب بخط يدي .

فأجاب ريمون أن هذا حدث بمحض المصادفة ، فقال له المدعي العام وهو يريد أن يفحمه : ان المصادفة قد استخدمت بكثرة في هذه القصة التي ترونها . وقال انه يريد أن يعرف أيضا ما اذا كانت المصادفة أيضا قد منعتني من التدخل حينما صفع عشيقته . وأن المصادفة هي التي جعلتني أسهد معه في قسم الشرطة . وان المصادفة هي التي جعلت شهادتي صادرة عن مجرد المجاملة ورغبتني في ارضاء خاطره ! وأخيرا سأل ريمون عن مصدر رزفه ولما أجب بأنه يعمل في محل تجاري صاح المدعي العام موجها كلامه الى المحلفين : ان الشاهد معروف بأن مهمته « قواد » واني شريكه وصديقه ، وأضاف : ان الامر يتعلق بمأساة تتسم بأبشع ألوان النذالة والانحطاط الخلقي . وأراد ريمون ان يدافع عن نفسه - كما اخذج المحامي الذي يترافع عني - ولكن قيل لهما انه يجب عليهما أن ينتظرا حتى يكمل المدعي العام كلامه . وقال المدعي العام :

ليس لدي شيء كثير يمكنني أن أضيفه الى ما قلت . ثم سأل ريمون مسيرا اليّ : هل هذا صديقك ؟ فقال ... نعم .. انه صاحبي . ووجه اليّ المدعي العام السؤال نفسه ، فنظرت الى ريمون الذي لم يحول عينيه عني ، وقلت : نعم . وحينئذ اتجه المدعي العام نحو المحلفين وقال : ان الرجل نفسه ، الذي انغمس غداة موت أمه في أشد أنواع الفجور انازة الخجل ، قد ارتكب جريمة قتل لاسباب نافهة ، ولنصفية مسألة خلقية شنيعة .

وحينئذ جلس . وكان المحامي قد نقد صبره ، فصاح وهو يرفع ذراعيه الى أعلى بقوة ، حتى أن كمي الروب انحسرا وكشفا عن طيات قسيسه ، وقال : وأخيرا ... هل هو متهم بأنه دفن أمه أو بأنه قتل رجلا ؟ . ودوت القاعة بضحك الجمهور ، ولكن المدعي العام اتصب واقفا ، واتشح بالروب وقال ان الامر يقتضي قدرا كبيرا من السذاجة اذا

كان المحامي المحترم لا يريد أن يدرك أن بين الواقعتين علاقة قوية ، ومؤثرة ، وجوهرية • ثم أردف صارخا : نعم ••• اني أتهم هذا الرجل بأنه دفن أمه بقلب مجرم • ويبدو ان هذا الكلام كان له تأثير كبير في الجمهور فقد رفع المحامي كنفه وجفف العرق الذي كان يغطي جبهته ، وبدا أنه قد ارتج عليه وفهمت ان الامور لا تسير على ما يرام بالنسبة لي •

ورفعت الجلسة • وفي اثناء خروجي من المحكمة لأركب عربة السجن شملت للحظة قصيرة روائح أمسيات الصيف ومتعت بعيني بألوانها — وفي ظلام سجنى المتحرك تناهت الى أذني ، وأنا متعب مكدود • الاصوات المألوفة في تلك المدينة التي كنت أحبها في الساعة نفسها التي كت أنعم فيها بالسرور والغبطة حينما كنت حرا طليقا • وكانت صيحات نائمي الصحف في النضاء المتسع وشقشقة العصافير الاخيرة في الميدان ونداء باعة « السندوتش » ، وأزيز عربات الترام في المنحنيات المرتفعة بالمدينة ، ووهج السماء قبل أن برخي الليل سدوله على الميناء — كل هذا كان بمثابة علامات للطريق يمكن أن يهتدي بها الاعمى ، وكنت أعرفها جيدا قبل أن أدخل السجن • نعم ••• كانت هذه هي الساعة التي كنت أتسعر في خلالها ، منذ زمن أصبح يبدو لي بعيدا جدا ، بالغبطة والهناء ، وكنت حينئذ أنام نوما خفيفا من غير أحلام ، ولكن يبدو أن تغيرا قد حدث لان الشيء الذي ينتظرني الآن هو الزنزاعة التي أقبع فيها في انتظار الغد ••• عجا ••• ان الدروب المألوفة المرتسمة في سماء الصيف يمكن أن تؤدي أيضا الى السجن كما تؤدي الى النوم البريء •

الفصل الرابع

ان الانسان يجد متعة حينما يستمع الى الناس وهم يتحدثون عنه ، حتى ان كان يجلس على مقاعد المتهمين ، وفي خلال مناقشات المدعي العام والمحامي الذي يترافع عني تبين انهما تكلمتا كثيرا عني ، وربما كان حديثهما عني اكثر من حديثهما عن جريمتي . ولكن هل كانت هذه المرافعات مختلفة ؟ لقد كان المحامي يرفع ذراعيه ويعترف بأني مذنب ولكنه يتلمس لي الاعذار ، وكان المدعي العام يمد يديه ويؤكد اتهامي ، ولكن من غير أن يتلمس لي أي عذر . ولكن شيئا كان يضايقني بشكل غامض . فمع همومي كنت أشعر أحيانا بميل الى التدخل في المناقشات ولكن المحامي كان يقول لي حينئذ : أسكت . . فهذا أفضل لقضيتك . وكان يبدو لي ان هذه القضية تعالج بصورة ما بعيدا عني ، وكان كل شيء يتم من غير أي تدخل من جانبي ، وكان بصيري يبت فيه من غير أن يؤخذ رأبي . وكنت أحس بالرغبة بين حين وحين في أن أصرخ في وجه الجميع قائلا : ولكن بعد كل شيء . . من هو المتهم ؟ انها مسألة خطيرة أن يصبح الانسان متهما . . وان لدي شيئا أريد أن أقوله ولكنني بعد أن أعمل فكري ، لم أكن أجدر شيئا أقوله . ومن جهة أخرى ، فاني أعترف بأن المتعة التي يشعر بها المرء بحمل الناس على الانشغال به لا تدوم

طويلا . فمثلا مرافعة المدعي العام أدخات السأم في نفسي بسرعة و فقط بعض الفقرات ، والحركات أو عبارات بأكملها متناثرة ومنفصلة عن الموضوع ككل ، هي التي كان لها تأثير في نفسي ، او اثاره انتباهي .

وكان جوهر فكرة المدعي العام ، اذا كنت قد فهمتها ، هي اني ارتكبت جريمة مع سبق الاصرار : أو هو حاول على الاقل أن يثبت ذلك . وقد قالها هو نفسه : سأقدم لكم الدليل على ذلك أيتها السادة ، وسأقدم لكم بطريقة مزدوجة على ضوء الوقائع الناصعة الواضوح أولاً ، ثم على ضوء النفسية القائمة لهذه الروح المجرمة بعد ذلك - وقد لخص الوقائع ابتداء من يوم وفاة أمي . فذكر عدم مبالاتي ، وجهلي بسن أمي ، وذهابي للاستحمام في اليوم التالي لوفاتها ، مع امرأة ، والسينما وفرنانديل ، وأخيرا عودتي الى منزلي مع ماري . وأمضيت وقتنا محاولا أن أفهمه لانه قال « عشيقته » وهي في نظري كانت « ماري » فقط . ثم سرد بعد ذلك حكاية ريمون وقد تبينت أن طريقته في ذكر الوقائع لا نفتقر الى الواضوح ، وكان ما قاله جديرا بالاعجاب . لقد كتبت الخطاب كما قال ، بالاتفاق مع ريمون لاجتذاب عشيقته وتعرضها لمعاملة سيئة من جانب رجل « تحوم الشكوك حول أخلاقه » . وقمت على البلاج باستفزاز خصوم ريمون . وجرح ريمون وطلبت منه مسدسه ، ثم عدت وحدي لكي أستخدمه وقتلت الشاب العربي طبقا للخطة التي دبرتها ، ثم انتظرت . ولكي أتيقن من اني أنجزت المهمة كما ينبغي ، فقد أطلقت بعد ذلك أربع رصاصات بثبات تام ، وبنوع من العمد والتروي .

ومضى المدعي العام فقال : وهكذا أيتها السادة . لقد رسمت لكم خيظ الوقائع التي قادت هذا الرجل الى ارتكاب جريمة قتل ، وهو في حالة اصرار . فالمسألة اذن لا تتعلق بجريمة قتل عادية ، من ذلك النوع الذي يحدث من غير تفكير أو روية والذي يستحق أن تبشوا له عن

طروف مخففة • وهذا الرجل •• أيها السادة •• هذا الرجل ذكي • وقد
استمعتم اليه ، أليس كذلك ؟ انه يعرف كيف يجيب • انه يعرف قيمة
الكلمات • ولا يمكن القول انه ارتكب جريمته من غير ان يقدر جسامة
جرمه •

وقد أصغيت جيدا الى ما قاله المدعي العام من أنني شخص ذكي
ولكنني لم أفهم كيف يمكن أن تصبح صفات الانسان العادي تهما شعناء
ضد المذنب • كان هذا على الاقل هو الانطباع الذي شعرت به ، ولم
أصغ بعد ذلك الى المدعي العام الى ان قال : هل أعرب حتى عن ندمه ؟
كلا ، أيها السادة •• ان هذا الرجل لم يظهر ولو مرة واحدة في خلال
التحقيق تأثره من جرمه الفظيع وفي هذه اللحظة النفث اليّ وأشار نحوي
باصبعه وهو يواصل الحملة من غير ان افهم في الواقع سبب ذلك ••
وليس نمة شك في اني لم أستطع أن أمنع نفسي من الاعتراف بأنه كان
على حق • فأنا لم أندم كثيرا على ما فعلت • ولكن الذي أدهشني هو
كل هذا العداء الذي يظهره نحوي • وقد أردت أن أبذل محاولة لكي
أشرح له بطريقة عادية ، بل بالاحرى بطريقة ودية ، انه لم يكن في
استطاعتي مطلقا أن أندم على أي شيء ، فقد كنت دائما مأخوذا بما
سوف يحدث •• بما يمكن أن يقع اليوم او غدا ، ولكن لم يكن في وسعي
بطبيعة الحال أن أتكلم ، في الظروف التي وضعت فيها ، مع أي شخص
في هذا الشأن • ولم يكن من حقي أن أبدو لطيفا متوددا ، أو أن أظهر
نوايا طيبة • ثم حاولت أن أصغي بعد ذلك لان المدعي العام بدأ يتكلم
عن روحي •

نقد قال انه عكف عليها يفحصها ولكنه لم يجد شيئا ، أيها السادة
المحلفون •• وقال انه في الواقع ليس عندي روح ، أو أي شعور انساني ،
أي مبدأ من المبادئ الخلقية التي تحرس نفوس الناس • ثم أردف

قائلا : « ولا شك اننا لا نسنطع أن نأومه على ذلك . فان ما عجز عن الحصول عليه لا نسنطع نحن أن نتسكو من أنه افتقر اليه . ولكن حيسا يتعلق الامر بهذه المحكسه ، فان فضيلة التسامح السلبيه يجب ان تدوب في فضيأة أقل سهولة ، ولكنها أكثر سسوا ألا وهي فضيلة العدالة ولا سيما حينما يصبح فراغ التاب الدى اكشفوه في هذا الرجل وصسه في جبن المجتمع . حينئذ بدأ بسكلم عن موقفي تجاه أمي ، وأخذ يعبد ما فاله في خلال المناقشات ، ولكنه أخذ يسهب في دالت أكثر مما فعل حينما كان يتكلم عن جريمي ، وكان اسهابه من الطول بحيث لم أعد أحس في النهاية الا بجراره هذه الظهيره . وقد ظل هذا الاحساس بساورني الى أن توقف المدعي العام لحظة ، لزم الصمت في خلالها ، ثم لم يلبث أن استأنف الكلام بصوت خفيض ونفاذ فقال : ان هذه المحكمة نفسها ستحكم غدا ، أيها الساده ، في أشد الجرائم هولاء . وهي : قتل الاب . وقال ان الخيال ليراجع أمام مثل هذا الاعداء النظيف ، وأضاف انه يأمل أن تبادر العدالة الى القصاص من غير ضعف ، وقال انه لا يخشي أن يقول ان البشاعة الني توحى بها هذه الجريمة أسلسته الى بشاعه أخرى يحس بها نتيجة لنبلد شعوري وافتقاري الى الاحساس . وقال ان الشخص الذي يقتل أمه أديبا ، يجب أن يعامله المجتمع المعاملة نفسها اللي يستحقها من يغدر بأبيه . وأردف قائلا أن الاول يمهذ السبيل أمام الثاني لكي يرتكب جرمه ، ولكي يعلن مشروعية هذا الجرم بصوره من الصور . ثم قال ، وهو يرفع صوته : انني مقتنع بذلك أيها الساده ، ولعالمكم لا تجدون كلامي متسما بالجرأة اذا قلت لكم ان الرجل الجالس أمامكم على هذا المقعد مذنب أيضا بجريمة القتل التي ستنظرها المحكمة غدا . وهو يجب أن يعاقب على ضوئها . وهنا أخذ المدعي العام يسبح العرق من على وجهه اللامع . وقال أخيرا ان واجبه مؤلم ، ولكنه سيقوم به بعزم

وثبات • وقال اني لا أسحق الرحسة من مجتمع تجاهلت قواعده الجوهريّة
أو أن أطلب السفقة من قلب أي انسان ثم قال : انني أطلب منكم رأس
هذا الرجل ، واني لأطاب ذلك وأنا سستريح القلب لاني اذا كنت في خلال
حياتي القضائية الطويلة قد طالبت كثيرا بتوقيع عقوبة الاعدام ، فاني
لم أشعر مطلقا من قبل بالشعور الذي أحسه اليوم بأن هذا الواجب
المؤلم يستند الى بواعث سامية ومقدسة ، ويستمد قوته من الهلع الذي
اشعر به أمام وجه رجل لا أفرأ في ملامحه الا كل ما ينم عن الوحشية •

ولما جلس المدعي العام سادت لحظة صمت طويلة بعض الشيء •
أما أنا فقد كنت أشعر بدوار من شدة الحرارة والذهول • وأخه رئيس
الجلسة يسعل قليلا ثم سألني بصوت خفيض عما اذا كان لدي شيء
أقوله • فنهضت ، وقلت انه لم تكن عندي النية لقتل الشاب العربي •
فقال ان هذا القول لم يتضح بعد جيدا من نظام دفاعي ، وانه يسعده ،
فبل أن يستمع الى المحامي الذي يترافع عني ، أن يعرف الدوافع التي
حدثت بي الى ارتكاب جريمتي • فقلت بسرعة ، وأنا أخلط الكلمات قليلا
رأحس بما في موقعي من سخريّة ، ان هذا كان بسبب الشمس • وسمعت
أصوات ضحك في القاعة • ورفع المحامي منكبيه ، ثم أذن له الرئيس
بعد ذلك بالكلام • ولكنه قال ان الوقت أصبح متأخرا ، وأن مرافقته
ستستغرق عدة ساعات ، وطلب التأجيل الى ما بعد الظهر • ووافقت
المحكمة على طلبه •

وبعد الظهر اخذت المراوح الكبيرة تحرك باستمرار هواء القاعة
الكثيف ، في حين اخذت المراوح الصغيرة المتعددة الالوان التي في ايدي
المحلفين تتحرك مع بعضها في الاتجاه نفسه • وكانت مرافعة المحامي
الخاص بي طويلة حتى خيل الي انها لن تنتهي • ومع ذلك فقد سمعته

مرة يقول : حقا . . لقد قتلته ، ثم استمر يتكلم على هذا النحو ويستخدم كلمة « أنا » كلما تكلم عني . وأدهشني ذلك كل الدهشة . وملت نحو احد الحراس وسألته عن سبب ذلك ، فطلب مني أن اسكت وبعد لحظة قال : ان كل المحامين يفعلون هذا ، أما أنا فقد جعلني ذلك أحس بأنني ازداد ابتعادا عن القضية واني اتحول الى مجرد صفر ، وانه استعاض بالمحامي عبي ، ولكن اعتقد اني في هذه اللحظة كنت بعيدا جدا عن فاعة الجلسة . ومن جهة اخرى فان المحامي بدا لي مضحكا . فقد تكلم عن عناصر الاستفزاز بسرعة شديدة ثم اخذ هو ايضا يتحدث عن روجي ولكن بدا لي أنه أقل نبوغا بكثير من المدعي العام . وقد قال : لقد انهمكت أنا ايضا في بحث هذه الروح ، ولكنني وجدتها ، على عكس ما قال ممثل النيابة العامة الموقر ، مثل الكتاب المفتوح . ثم قال انه قرأ في هذا الكتاب اني رجل شريف ، مجتهد منظم لا يكل ولا يمل ، مخلص للمكتب الذي أعمل فيه ، محبوب من الجميع ، وشديد الحنان على بؤس الآخرين وبلواهم ، ثم قال انه على يقين من أنني كنت ابنا نموذجيا لم يأل جهدا في الانفاق على أمه على قدر ما يستطيع . ثم قال اني كنت أوامل ان يتيح الملجأ للسيدة العجوز وسائل الراحة التي كانت حالتني لا تسمح لي بتوفيرها لها . ثم أردف قائلا : واني لفي دهشة أيها السادة من هذه الضجة الكبيرة التي أثيرت حول هذا الملجأ . ثم ان مثل هذه المؤسسات، التي أثبتت انها عظيمة الفائدة، انما تقوم الدولة ذاتها بالانفاق عليها. ولكنه لم يتكلم عن الجنازة ، وشعرت ان هذا الموضوع كان ينقص المرافعة . غير انه بسبب كل هذه العبارات الطويلة ، وكل هذه الايام والساعات التي لا تنتهي التي كانوا يتكلمون خلالها عن روجي ، خالجنني احساس بأن كل شيء أصبح مثل الماء الذي لا لون له ، واصابني ذلك بالدوار .

واخيرا فأني اتذكر فقط انه في خلال مرافعة المحامي ، كنت أسمع

صوت بوق بائع المتلجات آتيا من الشارع ومخترقا ردهات المحكمة وقاعاتها ، لكي يرن في أذني • وهاجمتني ذكريات حياه لم تعد بعد ملكي، ولكني وجدت فيها أبسط ألوان النشوة وأروعها : روائح الصيف ، والحي الذي كنت أحبه ، تكلل السماء في المساء ، وضحكات ماري وفساتينها • ولم أعد أحس الا بالمجلة ، وبالرغبة في أن ينتهي كل شيء لكي أعود الى زنزاني حيث استقبل النوم • ولهذا لم أكد أسمع صوت المحامي وهو يصيح لكي يختم مرافعه ، قائلا للمحلفين انهم لن يفلخوا ان يرسلوا الى الموت رجلا شريفا ، فقد صوابه في لحظه ضل فيها سواء السبيل • وطلب تطبيق الظروف المخففة لجريمته لا بد اني سأقاسي بسببها تأنيب الضمير الى الابد وهذا في حد ذاته يعتبر افضل عقاب • ورفعت المحكمة الجلسة ، وجلس المحامي وفد بدا عليه الارهاق • ولكن زملاءه أقبلوا عليه ليصافحوه • وسمعت بعضهم يقول له رائع ، با عزيزي •• و اراد احدهم ان يستشهد بي فقال لي : هيه •• ألبس كذلك ؟ ووافقته على رأيه ، لكن مجاملتي لم تكن مخلصه لاني كنت متعبا جدا •

وأخذ الوقت يمضي بسرعة ، وكانت الحرارة اقل قسوة • وتناست الى سمعي بعض ضوضاء الشارع وأخذت أفكر في جو المساء المنعش وكنا جميعا في القاعة ننتظر • وكان كل ما ينتظره الجميع لا يخصني الا أنا وحدي • ورحت انظر الى القاعة ، لم يكن اي شيء فيها قد تغير منذ أول يوم دخلتها • والتقى نظري بنظرات الصحفي ذي الجاكتة الرمادية وجعلني هذا افكر في أنني لم أبحث بنظري عن ماري طوال الجلسة • ان هذا لا يعني اني نسيتها ولكني كنت مشغولا بالتفكير طوال الوقت • رأيتها جالسة بين سيلست وريمون ، وأومات الي بايماءة صغيرة كما لو كانت تريد ان تقول : « واخيرا •• » ورأيت وجهها المشوب بشيء من القلق يتسم ولكني أحسست بقلبي مهموما ، ولم ارد حتى على ابتسامتها •

وعادت المحكمة الى الانعقاد . وتليت على المحلفين قائمة طويلة من الاسئلة ، وسمعت مثل هذه العبارات : متهم بالقتل . . مع سبق الاصرار . . الظروف المخففة . . وخرج المحلفون وأخذني الحراس الى الحجرة الصغيرة التي كنت أنتظر فيها من قبل . وحضر اليّ المحامي وكان يتكلم بذلاقة ، وحدثني بثقة ومودة لم أعهدهما فيه من قبل . وقال لي أن كل شيء سيكون على ما يرام ، وأن الامر لن يتجاوز الحكم علي بالسجن بضع سنوات . وسألته عما اذا كانت توجد فرصة لعمل نقض اذا جاء الحكم على غير ما نشتهي . فأجاب بالنفي ، وقال ان الخطة التي أتبعها هي ألا يقدم مذكرات حتى لا يزعج المحلفين ويثير نفورهم ، وانه لا يمكن تقديم نقض للحكم من غير اسباب . ووجدت كلامه معقولا وأيدت وجهة نظره . أضاف المحامي قائلاً : وعلى أي حال ، فأمامنا الاستئناف . واقتنعت برأيه ، واحسست بأن النتيجة ستكون طيبة .

وانتظرنا فترة طويلة . . نحو ثلاثة ارباع الساعة على ما اعتقد ، وفي نهاية هذه المدة دق الجرس . وتركني المحامي قائلاً : ان رئيس هيئة المحلفين سينتو الردود . ولن يسمح لك بالدخول الا لسماع مضمون الحكم ، وسمعت صوت أبواب تصطقق واشخاص يجرون على درج لا أعرف اذا كان قريباً او بعيداً . ثم سمعت صوتاً مكتوماً يقرأ شيئاً في القاعة . ولما دوى صوت الجرس مرة أخرى ، أحسست بالصمت يسود القاعة ، وبهذا الشعور الغريب الذي ساورني حينما لمحت الصحفي الشاب يحول عينه عني . ولم انظر في اتجاه ماري ، فلم يكن ثمة وقت لذلك ، لان رئيس الجلسة قال في صوت غريب ان رأسي سيقطع في ميدان عام بأسم الشعب الفرنسي ، وبدأ لي أني فهمت المشاعر التي قرأتها على وجوه الجميع ، واعتقد انها كانت تنطوي على الاحترام . وكان الحراس في غاية

الرقعة والوداعة معي • ووضع المحامي يده على معصمي • ولم اعد افكر في شيء • ولكن الرئيس سألني عما اذا كنت أريد أن أقول شيئاً • وفكرت قليلاً ثم قلت : « لا » • وحينئذ قادني الحراس الى خارج القاعة •

الفصل الخامس

رفضت للمرة الثالثة ان اقابل الكاهن فلم يكن لدي شيء يمكن ان اقله ، ولم تكن عندي رغبة في الكلام . وكان ما يهمني في هذه اللحظة هو أن أفر من المقصلة وأن أعرف ما اذا كان يوجد مخرج من مصيري المحتوم ، ونقلت الى زنزانة اخرى وحينما كنت اتمدد فيها كنت أرى السماء ولا أرى شيئا غيرها . انني أمضي كل أيامي أرقب في وجهها تحول الالوان الذي يؤدي من النهار الى الليل ، انني أرقد واضعا يدي تحت رأسي انتظر ولا اعرف كم من المرات تساءلت عما اذا كانت ثمة امثلة لمحكوم عليهم بالاعدام استطاعوا الهرب من المقصلة الرهيبة واختفوا قبل التنفيذ واخترقوا حصار رجال الشرطة وانحيت على نفسي باللائمة حينئذ لانني لم أهتم من قبل بقصص تنفيذ احكام الموت وايقنت انه يجب على المرء ان يهتم دائما بمثل هذه المسائل ، ولكن الانسان لا يمكن مطلقا أن يعرف ما يخبئه له القدر . وقد قرأت ، مثل غيري من الناس اشياء من هذا القبيل في الصحف ، ولكن لا شك في انه كانت توجد كتب خاصة في هذا الموضوع لم يدفعني فضولي الى الاهتمام بها وقراءتها ، وربما لو كتبت فعلت ذلك لوجدت فيها شيئا عن قصص الهرب ، وربما كنت قرأت

انه في في حالة واحدة على الاقل توقفت عجلة المفصلة ، وان المصادفة أو الحظ قد غيرا مجرى الامور ولو مرة واحدة !! ان هذا كان يكفيني على اي حال . ان الصحف كانت تتكلم كثيرا عن دين للمجتمع ، لا بد في رأيها من دفعه ولكن الذي كان يشغل بالي هو البحث عن وسيلة للفرار . . عن وثبة تنقلني عبر الطريق الذي رسم لي ، عن رحلة الى الجنون تهيبء لي جميع فرص الامل . . وبطبيعة الحال لم يكن ثمة امل الا في أن تزهق روحي في أحد اركان الشوارع ، وانا اجري هاربا ، باحدى الرصاصات التي تطلق حينئذ نجوي ، ولكن بعد التفكير في كل الاحتمالات وجدت انه محظور علي الحصول على هذا الترف ، وان المفصلة هي التي ستأخذ أجلي .

وعلى الرغم من حسن طويتي فائني لم استطع ان اقبل هذه الحقيقة المهينة فقد وجدت ان هناك عدم تناسب مضحك بين الحكم الذي اقره وبين الاجراءات التي اتبعت منذ اللحظة التي نطق فيها بالحكم . فكون الحكم تلي في الساعة الثامنة مساء او انه كان من المحتمل ان يكون شيئا آخر ، وان الذي اصدره رجال يمكن ان يغيروا افكارهم كما يغيرون ملابسهم وأنه صدر بأسم فكرة غير واضحة مثل الشعب الفرنسي (أو الالماني أو الصيني) أزال من هذا القرار كثيرا من جديته وعلى أي حال فقد كنت مرغما على الاعتراف بأنه منذ اللحظة التي صدر فيها هذا الحكم اصبحت جميع نتائج مؤكدة ومحقة مثل وجود هذا الجدار الذي اسحق جسدي عليه . .

وتذكرت في هذه الايجظات قصة كانت قد روتها لي أمي عن أبي الذي لم أره . . وربما كل ما اعرفه عن هذا الرجل هو ما قالته لي أمي عنه : فقد ذهب ذات مرة لكي يشهد تنفيذ حكم الاعدام في شخص ارتكب

جريمة قتل وقد ذهب كارها وهو يشعر بالغثيان ولكنه ذهب على اي حال ، وحين عودته تقياً جزءاً من الطعام الذي تناوله في الصباح ، وقد جعلتني هذه القصة أتفكر من أبي بعض الشيء منذ ذلك الوقت ، أما الآن فاني قد فهمت ان هذا كان شيئاً طبيعياً ، فكيف لم استطع ان ادرك انه لا يوجد شيء اخطر واكثر اهمية من تنفيذ حكم الاعدام وانه في الوقت نفسه أكثر الاشياء اثاراً لفضول الانسان ، ولو قدر لي أن اخرج من هذا السجن لذهبت اتفرج على تنفيذ جميع احكام الاعدام ولكنني كنت مخطئاً كما اعتقد في التفكير في امكان تحقيق هذه الامنية ، لان فكرة ان أجد نفسي حراً ذات صباح خلف سياج رجال الشرطة ، وفكرة ان اصبح المتفرج الذي يذهب ليشاهد ثم يستطيع بعد ذلك أن يتقياً ، كانت تملأ قلبي بفرحة طاغية . لقد كانت هذه افكرة غير معقولة وكنتم مخطئاً في ترك نفسي نهياً للوهام والتخيلات ، لاني في اللحظة التالية شعرت ببرودة شديدة الى حد اني انكشيت تحت غطائي واخذت اسناني تصطك ببعضها بعضاً دون ان استطع وقفها ..

ولكن الانسان لا يستطيع دائماً بطبيعة الحال أن يكون معقولاً ، ومن أمثلة ذلك اني فكرت عدة مرات في اصدار مشروعات قوانين وفي اصلاح نظام العقوبات ولاحظت ان اهم شيء هو منح فرصة لمن يحكم عليهم بالاعدام ولو بنسبة واحد الى الالف ، فان هذا يكفي لتنظيم الامور ، وعلى هذا بدا لي انه من الممكن ابتكار تركيب كيميائي يقتل المريض (وكرر : المريض) الذي يتناوله في كل تسع حالات من عشر . ويشترط ان يكون على بينة بمفعول هذا التركيب ذلك اني حينما فكرت في هذا الموضوع بهدوء وجدت انه لا توجد بالنسبة للموت على حد المقصلة اية فرصة للنجاة على الاطلاق وهذا نقص معيب فمضيت المريض ازاءها يتقرر بصفة نهائية ويصبح شيئاً مفروغاً منه ، وانفاقاً لا يمكن

الرجوع فيه ، ولو حدث ان خابت ضربة المقصلة لسبب شاذ فانها يمكن أن تعاد مرة أخرى ، وعلى هذا فان المحكوم عليه لا يكون أمامه الا أن يتمنى ان تسير الآلة سيرا طبيعيا ، وهذا يعني انه يجد نفسه مضطرا لان يتعاون معها ادبيا . . فان من مصلحته ان يسير كل شيء من غير حدوث اي عائق .

وقد تحققت ايضا على الرغم مني أن كثيرا من افكاري عن هذه المسائل لم تكن مضبوطة ، فقد كنت اعتقد لفترة طويلة من الزمن - ولا اعرف لماذا - انه لكي يتجه الانسان الى الجيلوتين فانه يجب عليه ان يصعد منصة ، وان يتسلق عددا من الدرجات ، واطن ان هذا كان بسبب ثورة عام ١٧٨٩ ، اقصد بسبب ما تعلمته او رأيت بصدد هذه المسائل ، ولكنني تذكرت ذات صباح صورة كانت قد نشرتها احدي الصحف بمناسبة تنفيذ حكم بالاعدام كان له دوي شديد ، فالواقع ان الآلة كانت قد وضعت بكل بساطة على الارض ذاتها (دون منصة او درجات) وكانت اقل اتساعا مما كنت اظن ، وقد تأثرت جدا بصورة هذه الآلة بسبب منظرها اللامع ودقة صنعها . ان الانسان تكون له دائما افكار مبالغ فيها عن الاشياء التي يعرفها ، وعلى هذا فينبغي ان اعترف بأن الامر كان في غاية البساطة فالواقع ان الآلة كانت في مستوى الرجل الذي يسير نحوها وهو يتجه اليها كما لو كان يسير لمقابلة شخص ، ولكن مثل هذه المقصلة لا تخلو ايضا مما يثير الضيق ، فان الصعود على المنصة في اتجاه السماء وارتقاء الدرج شيء يثير الخيال وهو أمر لا يتوافر في المقصلة السالفة الذكر .

وهناك شيان آخران كنت افكر فيهما طول الوقت : الفجر وعريضة الاستئناف . وقد راجعت نفسي مع ذلك وحاولت الا أمضي في التفكير ،

فتمددت واخذت اتطلع الى السماء وحاولت أن انشغل بها . . لقد اصبحت خضراء ، فقد حل المساء ، وبذلت جهدا لكي احول مجرى افكاري واصغيت الى قلبي ولم استطع ان اتصور ان هذا الضجيج ، الذي رافقني طوال هذا الزمن ، يمكن ان يتوقف ، انني لم أكن املك حقا موهبة الخيال ، ولكنني حاولت مع ذلك ان امثل لحظة يتوقف فيها هذا القاب عن اىصال النبض الى رأسي ، ولكن محاولتي ذهبت عبثا ، فقد كان الفجر والاستئناف يستحوذان على كل تفكيري ، واخيرا قلت لنفسي ان الشيء المعقول حقا هو الا ارغم نفسي على شيء .

وفي الفجر جاءوا ، وكنت اعرف ذلك من قبل ، ولقد شغلت لىالي بانتظار هذا الفجر ، انني لم أكن أحب أن أفاجأ على الاطلاق ، فحينما يحدث لي اي شيء افضل ان اكون مستعدا له ، ولهذا فقد انتهى الامر بأن أصبحت لا أنام الا قليلا في النهار ، وأن أنتظر بصبر على طول الليل مولد الفجر على صفحة السماء ، وكان اصعب شيء هو انتظار هذه الساعة المرية التي كنت اعرف انهم سيقومون فيها بعملتهم المعهودة ، وحينما كان الليل ينتصف كنت انتظر وارقب وکلي آذان مرهفة ، واستطيع القول مع ذلك اني كنت حسن الحظ في خلال كل تلك الفترة لاني لم اسمع أية خطوة تقرب من زنراتي . أن أمي كانت تقول في كثير من الاحيان ان الانسان لا يكون مطلقا تعيسا مائة في المائة ، وقد تحققت من ذلك في سجني حينما كانت السماء تتلون وحينما كان يزرع نهار جديد في زنراتي ومع ان اقل حركة كانت تجعلني اندفع نحو الباب ومع اني كنت انصت الى اي صوت واذني ملتصقة بالخشب واستحوذ على الهلع الى حد انسي كنت اسمع صوت تنفسي ، فلم يكن في كل ذلك ما ينم عن التعاسة المطلقة لاني في آخر المطاف كنت اجد نفسي حيا ارزق ، واني كسبت اربعا وعشرين ساعة جديدة .

وكانت مسألة الاستئناف تشغلني ايضا طوال اليوم ، وعلى أي حال فقد استفدت كثيرا من التفكير في هذا الموضوع ، وخلصت منه بأن افترضت أسوأ الفروض وهو ان الاستئناف سيرفض .. حسا ... اذن سأموت وسأموت مبكرا .. قبل غيري . ولكن الناس كلهم يعرفون ان الحياة لا تستحق عناء العيش فيها والواقع لم أكن اجهل ان الموت في سن الثلاثين أو في سن السبعين لا يهم كثيرا ، اذ في كلتا الحالتين سيعيش بطبيعة الحال رجال آخرون ونساء اخريات ، وسيستمر الحال على هذا المنوال آلاف السنين ، ولم يكن هناك شيء أكثر من ذلك وضوحا بأي حال ، والشيء المؤكد هو انني انا الذي سأموت ، سواء الآن او بعد عشرين سنة ، ولكن الشيء الذي ضايقتني قليلا ، وانا افكر ، هو هذه القفزة المخيفة التي الى الامام .. مدى عشرين عاما ، ولكنني طردت هذه الفكرة من ذهني وروضت نفسي على قبول فكرة ان الاستئناف سيرفض .

ولكن في هذه اللحظة ، وفي هذه اللحظة فقط ، كان لي الحق ، أو بعبارة اخرى اعطيت لنفسي الحق ، في ان ابحت الفرض الثاني ، وهو اني سأحصل على العفو ، وقد ازعجني ، حينما ساورني هذا الخاطر ، انسي أحسست بدمي وجسمي ينتفضان ويوخز في عيني من فرط الفرحة المخبولة التي غمرتني ، ووجدت انه ينبغي ان اكبح جماح هذا الخاطر وان اوجهه وجهة تتفق مع المنطق والعقل، اذ يجب ان اكون طبيعيا حتى في هذا الفرض لكي احقق التوازن بينه وبين الفرض الاول الذي ادعنت فيه لقدرتي واستسلمت لمصيري ، ولما نجحت في ذلك امضيت ساعة عمرني في خلالها الهدوء وكان هذا كسبا في حد ذاته ..

ولقد رفضت مرة اخرى في لحظة مماثلة ، ان استقبل الكاهن . كنت مستلقيا حينئذ واحدس باقتراب حلول امسية الصيف وتلون السماء بلون

الذهب ، وكنت قد اعددت نفسي لقبول نبا رفض الاستئناف واستطعت ان احس بأمواج دمي تتدفق بانتظام في جسدي ، ولم اكن في حاجة الى الكاهن ، ولاول مرة منذ فترة طويلة من الزمن فكرت في ماري انها لم تكتب لي منذ زمن طويل ، وفي هذا المساء قلت لنفسي انها ربما سئمت ان نظل عشيفة لمحكوم عليه بالموت ، كما خطررت لي ايضا فكرة انها ربما تكون مريضة او ماتت . كان هذا هو منطق الاتسياء ، وكيف اعرف الحقيفة اذا كان لم يعد يربط بيننا شيء او بذكر احدنا الآخر؟ ، وعلى اي حال فمذ هذه اللحظة اصبحت لا ابالي بذكرى ماري فادا كانت قد ماتت فان هذا لم يعد يهمني كثيرا ، ووجدت هذا أمرا عاديا بالطريقة نفسها ، التي أدركت بها ان الناس سينسونني بعد موتي ادلن يكون ثمة ما يدعوهم الى ان يذكروني ولا يستطيع ان اقول ان التفكير في ذلك شيء مؤلم .

وفي هذه اللحظة بالذات دخل الكاهن عندي ، ولما رأيه اصابتني رعدة ارتجف معها بدني بعض الشيء ، ولمح ذلك وطلب مني الا اخاف فقلت له انه يحضر عادة في مناسبة معينة ، فاجاب بان هذه زيارة ودية لا علاقة لها بالاستئناف الذي قدمته والذي لا يعرف عنه شيئا ، وجلس على فراشي ودعاني للجلوس الى جانبه ، وانكبي رفضت ، ومع ذلك فقد بدا لي انه وديع جدا .

وظل جالسا بعض الوقت وقد وضع ساعديه على ركبتيه وخفض رأسه واخذ ينظر الى يديه وكانت يدها رفيفتين تكسوهما العضلات ، وخيل الي انهما تشبهان وحشين سريعتي الحركة . . واخذ يفركما ببطء وظل على هذا الحال فترة طويلة من الوقت وهو خافض الرأس حتى خيل الي في احدى اللحظات اني نسيتته .

ولكنه رفع رأسه فجأة ونظر في وجهي وقال : لماذا ترفض ان ازورك؟
فقلت لاني لا اؤمن بالله ، واراد ان يعرف اذا كنت اعني ما افول ، فقلت
له اني لم أسأل نفسي في ذلك لان هذه المسألة لا تبدو لي ذات اهمية ،
وحيث مال الى الخلف واستند الى الحائط وبسط يديه على فخذي ،
ثم قال من غير ان يبدو عليه انه يكلمني ، اني أظن نفسي واثقا احبانا مسا
أقول مع ان الحقيقة غير ذلك ، ثم نظر الي وسألني :

ما قولك في هذا ؟ فقلت له ان هذا جائز ، واردت قائلا : انني على
اي حال ربما لا اكون واثقا من الاشياء التي تهمني فعلا ، ولكنني واثق
من الاشياء التي لا تهمني ، والواقع ان ما كان يحدثني فيه لم يكن يهمني .
ومن غير ان يحول بصره او ان يغير جلسته سألني عما اذا كنت اقول
هذا بسبب شدة يأس ، فقلت له اني لا أشعر باليأس واني أشعر فقط
بالخوف ، وهذا شيء طبيعي . فقال :

« ان الله سيساعدك اذن ، وجميع الذين عرفتهم وكانت لهم مثل
حالتك اتجهوا نحوه » . فقلت له ان هذا من حقهم وربما كانت لديهم
فسحة من الوقت لكي يفعلوا ذلك اما بالنسبة لي فاني لا اريد ان يساعدني
احد ، وانه يعوزني الوقت الكافي لكي اهتم بما لا اهتم به .

وفي هذه اللحظة بدرت من يديه حركة تنم عن الاستياء ولكنه نهض
واصلح ثنيات ثوبه ، ولما انتهى من ذلك خاطبني قائلا . يا صديقي ! وقال
انه لا يحدثني هكذا لاني محكوم علي بالموت ، واردف قائلا : اننا جميعا
محكوم علينا بالموت ، ولكنني قاطعته قائلا : ان التشبيه مختلف ، وان
الحالة ليست واحدة ، وان هذا الكلام لا يمكن ان يدخل في قلبي العزاء ،
فوافقني على وجهة نظري وقال :

بالتأكيد ... ولكنك سنموت فيما بعد اذا لم تمت اليوم والمسكلة
نفسها ستظهر حينئذ ، فكيف ستواجهها اذن ؟ فقلت له اني سأواجهها
بالطريقة نفسها التي اواجهها بها الآن .

ونهض حينئذ ونظر في عيني مباشرة وهذه لعبة أعرفها جيدا ، وكنت
اتسلى بها كثيرا مع عمانوئيل او سيلست وكانا في معظم الاحوال يحولان
عيونهما عني ، والكاهن ايضا يعرف هذه اللعبة ، وقد فهمت ذلك في النو
واللحظة فقد كانت نظرتة ثابتة وعبناه لا تطرفان كما ان صوته لم يرتعش
حينما قال لي :

أليس عندك اذن أي أمل ؟ وهل تعيش بفكرة انك سنموت حتما ؟
قلت : نعم .

وحينئذ خفض رأسه وجلس من جديد ، وقال انه يرثي لحالي ، وان
حالتني لا يمكن ان يطبقها انسان . اما انا فقد بدأت فقط احس بأني
متضايق وتحولت عنه بدوري واتجهت الى كوة الزنازة واستندت بكتفي
الى الجدار ، ومن غير ان اتبعه سمعته يبدأ في استجابي من جديد ، وكان
يتكلم بصوت يشوبه القلق والتعجل فأدركت انه منفعل وعواطفه مهناجة
فأخذت اصغي اليه بطريقة افضل .

وقال انه على يقين من ان استثنائي سيقبل ولكني احمل ثقل خطيئة
ينبغي التخلص منها . وقال ان عدالة الناس لا اهمية لها ، وان عدالة الله
هي كل شيء ، فقلت له ان العدالة الاولى هي التي ادانتني ، فأجاب بأنها
كذلك لم تغسل خطيئتي ، فقلت له اني لا اعرف ما هي الخطيئة ، فقال لي
فقط اني مذنب ، فقلت له اني كنت مذنبا وقد دفعت الثمن ولا يسكن ان
يطلب مني شيء أكثر من ذلك . وفي هذه اللحظة وقف مرة اخرى وفكرت

حينئذ انه اذا اراد ان يتحرك في مثل هذه الحجرة الضيقة فلن يكون امامه خيار فهو اما ان يجلس او يقف •

وكان بصري متجها الى الارض ، وتقدم خطوة مني ثم توقف كما او كان قد اعوزته الجرأة لكي يتقدم ، وأخذ يتطاح الى السماء من خلال قضبان الكوة ثم قال انك على خطأ يا بني ، فمن الممكن ان يطلب منك المزيد وربما يطلب منك ذلك فعلا ، ومن الممكن ان يطلب منك ان ترى •• ترى ماذا ؟••

ونظر القس حوله ثم اجاب على سؤاله بصوت احسست انه متعب فقال : ان كل هذه الاحجار تنضح بالالم وأنا موقن بهذا •• انني لم أنظر اليها قط دون ان يساورني الحزن ولكني اعتقد في صميم قلبي ان اشد الناس تعاسة بينكم قد رأوا وجها سماويا يخرج من بين ظلام هذه الاحجار . والمطلوب منك هو ان ترى هذا الوجه •

وتأثرت بعض الشيء وقلت اني منذ شهور وانا اتطلع الى هذه الجدران ، وانه لا يوجد في الدنيا شيء او شخص اعرفه اكثر منها وربما بحثت فيها منذ زمن بعيد عن وجه ما ، ولكن هذا الوجه له لون الشمس وبه لهيب الرغبة لقد كان وجه ماري وقد بحثت عنه من غير جدوى ، ولكن كل شيء قد انتهى الآن •• وعلى اي حال فاني لم ار شيئا ينبثق من رشح هذه الاحجار •

ونظر اليّ الكاهن بنوع من الحزن وكنت حينئذ مستندا بظهري الى الجدار ، وكان الضوء يسيل الى جبهتي وقال بعض كلمات لم اسمعها ثم طلب مني بسرعة اذا كنت اسمح له بأن يقبلني فقلت له « لا » واستسدار وسار نحو الحائط ومرر عليه يده بيضاء وتمتم قائلا : هل تحب اذن الارض عند هذه النقطة ؟ ولكنني لم اجب •

وظل فترة طويلة مطرقا برأسه وكان وجوده قد بدأ يثقل علي
ويضايقني ، وكنت علي وشك ان اطلب منه الرحيل ، وان يتركني حينما
صاح فجأه بصوت مرتفع وهو يلتفت نحوي : كلا . . . انا لا استطيع ان
اصدقك ، انني علي يقين من انك كنت تتمنى حياة اخرى . فأجبت قائلا :
ان هذا شيء طبيعي ، ولكن هذا لم يعد له اهمية أكبر مما لو كنت قد
تمنيت ان اصبح غنيا . . او ان اسبح بسرعة انضل ، او ان يكون لي فم
احسن شكلا ، فهذا هو الشيء نفسه ، ولكنه قاطعني واراد ان يعرف كيف
ارى هذه الحياة الاخرى فقلت له : انها حياة استطيع ان أتذكر فيها هذه
الحياة ، ثم لم ألبث ان قلت له ان في هذا الكفاية ، فاراد ان يتكلم معي
مرة اخرى عن الله ولكنني تقدمت نحوه وحاولت ان افهمه انه لم يعد
امامي سوى وقت قليل لا اريد ان اضيعه مع الله . . . واراد ان يحصل
موضوع الحديث فقال لي : لماذا اخاطبه بكلمة « يا سيدي » بدلا من ان
أقول له يا أبي فهاجرت هذه الملاحظة أعصابي وقلت له انه ليس أبي وانه
يقف مع الناس الآخرين ضدي .

ولكنه قال وهو يضع يده علي كفتي : كلا يا ولدي انهم معك ،
ولكنك لا تستطيع ان تعرف ذلك لان لك قلبا اعمى ، انني أصلي من
أجلك .

وحيثند شعرت كأن شيئا ينفجر داخل نفسي ولا اعرف لماذا ،
فبدأت اصرخ بأعلى صوتي وشتمته وقلت له الا يصلي من اجلي وامسكت
به من ياقة ثوبه الكهنوتي وصببت عليه كل ما يعتمل في قلبي ، وأنا
أتفرض انتفاضات امتزج فيها الفرح بالغضب وكان يبدو عليه انه واثق
من نفسه ، أليس كذلك ؟ ومع هذا فان هذه الثقة لا تعادل شعرة واحدة
من امرأة . انه لم يكن حتى متأكدا من انه حي لانه يعيش كاليت اما انا
فكان يبدو ان يدي فارغتان ولكنني كنت متأكدا من نفسي متأكدا من

كل شيء أكثر منه ، متأكدا من حياتي ومن هذا الموت الذي سيأتي ، نعم لم يكن عندي سوى ذلك ولكنني على الاقل كنت أنشبت بهذه الحقيقة كما تشبثت هي بي ، لقد كان معي حق وكنت ايضا على حق ، وكنت دائما على حق ، لقد عشت حياتي بطريقة ما وكان يمكن ان اعيشها بطريقة اخرى ، لقد فعلت هذا ولم افعل ذلك ولم اعمل شيئا معيناً في حين عملت شيئا آخر . وبعد ؟ لقد خيل الي اني كنت انتظر طوال حياتي هذه الدقيقة وهذا الفجر لكي ابرر اعمالى وابرىء نفسي . لا شيء يهم مطلقا وانا اعرف لماذا . وهو ايضا يعرف لماذا ، ومن اعماق مستقبلي وخلال كل الحياة التي لا معنى لها التي عشتها كانت تصعد نحوي نسمات غامضة عبر سنين لم تأت بعد ، وكانت هذه النسمات تجعل كل شيء يبدو متساويا في نظري خلال السنين التي عشتها والتي لم تكن اكثر واقعية من السنين السالفة الذكر ، وماذا يهمني من موت الآخرين ومن حب الام وماذا تهم الحياة التي يختارها الانسان والمصير الذي يريده اذا كان هناك قدر واحد يختارني أنا نفسي ومعى ملايين الملايين من الناس الذين غمرهم هذا القدر بالميزات والذين يزعمون مع ذلك انهم اخوتي كما فعل هذا القسيس فهل يفهم ؟؟؟ هل يفهم ذلك اذن ؟ ان الناس كلهم ينعمون بالميزات ولا يوجد هناك سوى أشخاص ينعمون بالمزايا والآخرى ايضا سيأتي يوم يدانون فيه وهو ايضا - القسيس - سيأتي يوم يدان فيه وماذا يهم ، اذا اتهم انسان بالقتل أن يعدم لانه لم يذرف الدمع في جنازة أمه ؟ ان سالامانو كان يعتز بالكلب اكثر مما كان يعتز بزوجه والمرأة الصغيرة التي تشبه الدمية المتحركة كانت ايضا مذنبه مثل زوجة ماسون الباريسية مثل ماري التي كنت ارغب في ان اتزوجها ، وماذا يهم في ان ريمون كان صديقا لي مثل سيلست الذي كان أفضل منه ؟ وماذا يهم اذا اعطت ماري شفيتها اليوم لميرسول جديد ؟ فهل يفهم اذن .. هذا المحكوم عليه انني من اعماق مستقبلي أكاد

أخنتق وأنا أصرخ بكل هذا ، ولكن الحراس انتزعوا الكاهن من بين يدي
وهددوني ، ولكنه مع ذلك هدأ من روعهم ونظر الي لحظة وهو صامت
وكانت عيناه ممتلئتان بالدموع ثم استدار ومضى ...

وبعد أن رحل شعرت بالسكينة • كنت أشعر بأني مجهد فألقيت
بنفسي على فراشي ، واعتقد اني نمت لاني استيقظت والنجوم فوق وجهي
وتصاعدت ضوضاء الريف نحوي وانعشتني روائح الليل والارض والملح ،
وتفد الى داخل نفسي هذا السلام العجيب اللطيف للضيف النائم كأنه مد
البحر ، وفي هذه اللحظة ارتفع صوت صفارات السفن بالرحيل الى عالم
لن يبالي بي بعد الى الابد ، ولاول مرة منذ وقت طويل فكرت في أمي ،
وبدا لي اني فهمت لماذا اتخذت لها في أخريات حياتها « خطيبا » كما لو
كانت تريد أن تبدأ الحياة من جديد ، فهناك أيضا ... هناك أيضا ...
حول هذا الملجأ حيث تنطفئ الحيوانات كأن المساء يثير الكآبة في النفس ،
وكانت امي حينما اصبحت قريبة من الموت تريد ان تحس بأنها حرة وانها
مستعدة لان تعيش مرة اخرى ، ولم يكن من حق احد قط ان يبكي عليها
وانا ايضا احس بأني مستعد لان احيا من جديد واشعر كما لو كانت
هذه الغضبة الكبيرة التي غمرتني قد طهرتني من الشر وحررتني من الامل
امام هذا الليل المشحون بالعلامات والنجوم ، وقد تفتحت نفسي لأول مرة
لما في العالم من عدم مبالاة يتسم بالحنان ، وعدم المبالاة هذا الذي يظهره
العالم نحوي والذي ينطوي ارضا على معنى الاخوة جعلني ايضا احس
اني كنت سعيدا وان هذه السعادة لم تفارقني ، ولكي ينتهي كل شيء على
ما يرام ولكي لا أشعر بكثير من الوحدة لم يعد أمامي الا أن أتمنى أن
يحضر متفرجون كثيرون ، يوم تنفيذ الحكم باعدامي ، وان يستقبلوني
بصيحات الكراهية •

تم الكتاب